رواية
أوفاليس
نور كاثرينا الخالد
فايزة هني

Ovaliss

اوفاليس

«نور كاثرينا الخالد»

فايزة هني

رواية

الكتاب : أوفاليس – نور كاثرينا الخالد –

الصنف : رواية

تأليف : فايزة هني

سنة الإصدار :٢٠٢٥

تصميم الغلاف : فايزة هني

تنسيق داخلي : Henniyet design

جميع الحقوق محفوظة لدى المؤلف©

الإهداء

إلى كل من شعر يومًا أنه لا ينتمي لهذا العالم...

إلى الذين لم يفهمهم أحد، لكنهم استمروا في الحلم.

أهديكم "أوفاليس"... عالمٌ يُختار فيه من يضيء رغم الظلام.

تمهّل، أيها العابر...

لا تفتح هذه الصفحات كما تفتح كتابًا معتادًا، فالعوالم التي خلفها لا تُشبه ما تعرف، ولا تقف على أرض مألوفة.

هنا، الكلمات ليست مجرد حروف، بل مفاتيح... والمفاتيح تفتح أبوابًا قد لا تُغلق بسهولة.

ما ستقرأه نسجٌ من الخيال، عالمٌ خُلِق من دهشةٍ لا من عقيدة، ومن حاجةٍ إلى الحكاية، لا إلى الهداية.

فيه ممالك لا تُحكم، وآلهة لا تُعبد، وطقوس لا تُقلَّد، وقوى لا تطلب منك أكثر من أن تُصدّق لوهلة... لا أن تؤمن.

هذه الرواية تنتمي إلى أدب الفنتازيا؛ تدور أحداثها في زمنٍ لا يُقاس، ومكانٍ لا يُرسم على خرائط الواقع.

كل ما فيها من غرابة، من أساطير، من معتقدات وطقوس، إنما وُجد ليخدم الحكاية، لا ليمسّ يقينك أو يزاحم إيمانك.

هي أدوات فنية، لا مرايا عقائد؛ وهمٌ جميل لا يطلب منك إلا أن تغوص فيه... ثم تعود كما أنت، أو أَحلَم.

فإن صادفت في الطريق أسماءً لا تعرفها، أو طقوسًا لم تُروَ لك من قبل، فاعلم أنها ليست دعوة، بل زخرفة في نسيج الخيال... لا تقرأ بعين الرقيب، بل بقلب المغامر.

والآن... إن كنتَ مستعدًا، فتعال امشِ في الغيم معي، ولا تخف.

فأنا الراوي... وأعرف طريق العودة.

مقدمة

لا أحد يعرف متى وُجدت أرض "كاثرينا"، ولا من أين جاءت بالضبط. يُقال إنها سقطت من السماء كنَجمة ضائعة، وتحطّمت على صفحة الزمن دون أن تنتمي لأي زمن. هي أرض مختلفة، لا تشبه غيرها في لونها، صمتها، أو قوانينها.

الشمس فيها رمادية، معلّقة في السماء كقلب ينبض، ينبعث منها ضوء باهت كل صباح، يذيب الصقيع عن التلال الحمراء. والهواء هناك ليس مجرد هواء، بل رائحة تذوب في الصدر؛ مزيج من حجرٍ مبلّل وماءٍ هادئ.

التربة سوداء، وكأنها تنبض أحيانًا كقلب حي. ومن بين تشقّقاتها تنمو نباتات طويلة تشبه الرماح، أطرافها مضيئة وترتجف إذا مرّ فوقها طائر غامض.

عندما تمشي على الطريق المؤدي إلى مدينة "أوفاليس"، تشعر أن الأرض تختبرك. الحجارة تحت قدميك ليست ثابتة، بعضها يهمس لك، وبعضها يتذكّر خطواتك السابقة، كما لو كان يراك.

على جانبي الطريق، تقف أشجار بلا أوراق، أجسادها مصنوعة من الكريستال المتشقق، تتحرّك دون ريح، وتصدر أنينًا خافتًا مع كل انحناءة. تطير فوقها طيور سوداء بأجنحة من دخان، لا ترفرف، بل تذوب وتعود من جديد.

وفي نهاية الطريق، تظهر لك "أوفاليس"، المدينة التي لم تُبنَ من طين أو حجر، بل من معدن ناعم كضوءٍ متجسّد. مبانيها ترتفع كأصابع مرفوعة في دعاء، وكل نافذة فيها تحمل صرخة لا تُسمَع.

في وسط المدينة، يقف البرج القديم، أقدم من كل الحكايات، وأطول من كل الأسماء. يُقال إن داخله مكتبة لا تحتوي كتبًا، بل ذاكرة المدينة محفوظة في كتلٍ بلورية تنبض حين يقترب منها من يختاره القدر.

سكان أوفاليس بشر، لكن الزمن لفّهم بطبقة من الغموض، كأنهم عاشوا ألف عام، ثم عادوا أطفالًا. رجالهم يرتدون أردية خفيفة مرصعة بالرموز، ونساؤهم يمشين حافيات الأقدام، يتركن خلفهن آثارًا تتوهّج للحظة ثم تختفي.

وعلى أطراف المدينة، حيث تتشابك الجبال كأفاعٍ نائمة، تمتد الغابة المحرّمة. أشجارها تتحدث بلغة الطبول، وإذا وضعت أذنك على جذع إحداها، تسمع أغنية عن ماضٍ لم تعشه.

لا يجرؤ أحد على دخول الغابة، إلا أولئك الذين اختارتهم كاثرينا.

هؤلاء ثلاثة. لم يُولدوا عظماء، ولم تُرفع لهم رايات، لكن في عروقهم شيء لا يملكه أحد: "القدرة على الخروج من المصير."

الأول: فتى من المنفيين، يتحدث مع عناصر الطبيعة.

الثانية: فتاة عمياء، ترى الحقيقة خلف الظلال، وتسمع كذبَ الناس كنارٍ تصفِر.

الثالث: صامت، لا يتكلّم إلا حين يغضب، ولا يحزن إلا حين تبتسم له السماء.

سيُطلب منهم ما لم يُطلَب من أحد، وتُفتح أمامهم أبواب لا تُفتح إلا لدمائهم. في عالم لا يقف فيه الخير بوضوح، ولا يظهر الشر على حقيقته، تبدأ رحلتهم وسط التواء الأسئلة، وعتمة الأسرار.

هناك، في عمق الغابة، في قاع البرج القديم، أو في عيون الغرباء... يكمن مفتاح التغيير.

«كاثرينا لا تختار من يُنقذها، بل تختبر من يستطيع تحمّل حقيقتها.»

N
W
E
S
Linvara
Castle Veloran
Forbidden Forest
Domalys
Ovalis
Mirabilis
Seraphina
Enter at your own risk
Map of Katharina
— As Transcribed —

(١)

لم أكن أعلم إن كنتُ أحلم، أم أنني عالقة في يقظة لا تشبه أي وعيٍ عرفته من قبل. كل شيء كان غريبًا لدرجة أربكت إحساسي بالواقع. لا أصوات مألوفة، لا ظلال طبيعية، حتى الهواء من حولي لم يحمل رائحة أعرفها.

ما يحدث لا يشبه أحلامي المعتادة، ولا يشبه يقظتي أيضًا. شعورٌ مُعلّق، وكأنني أُسحب من تحت جلدي إلى مكان لا يخصني. لكن، رغم كل ذلك، أقنعت نفسي أنه مجرد حلم. تصرّفت على هذا الأساس، واستسلمت.

كانت الأرض تحت قدميّ دافئة، على الرغم من أن الهواء يعبق ببردٍ ناعم يشبه همسات الشك. خطوتُ بحذرٍ في الممرّ الحجري الذي بدا كأن الزمن قد نسيه؛ جدرانه المتآكلة محفورة بنقوشٍ لم أفهمها، لكنها همست في عقلي بشيءٍ...كأنها على وشك كشف سرٍّ عتيق.

القلادة التي أعلّقها على عنقي – تلك التي وجدتها قبل سبع ليالٍ تحت جذع الشجرة الميتة – بدأت تلمع بخفوتٍ كلما تقدّمت، كأنها تستجيب لنبض الأرض. سمعت حينها صدى صوتٍ خافت؛ لم يكن نداءً صريحًا، بل كأن الأرض نفسها

تناديني: «آريانا...» توقّفت... من؟ لم يكن الصوت خارجيًّا، بل داخلي، ينبعث من بين ضلوعي، كأنه خرج من أعماق ذاكرتي... أو من شيءٍ أقدم منها.

واصلت السير، حتى وصلت إلى بحيرة مستديرة تمامًا، تغمرها هالة من الضباب الخفيف. لكن وسطها لم يكن ماءً؛ بل سطح ساكن، زجاجيّ كالمرآة، يعكس وجهي بشكل مشوّه.

اقتربت، وانحنى رأسي دون وعي. وهناك... رأيت ظلًّا خلفي في انعكاس الماء. ظلٌّ طويل، لا يتحرّك كما ينبغي للظل أن يتحرّك. استدرت بسرعة، لكن لم يكن هناك أحد. خفق قلبي بعنف، وتراجعت خطوة. وفجأة، انشقّ السكون بصوتٍ عميق آتٍ من الغابة خلف البحيرة: "لقد عادت..."

تجمّدت في مكاني :من قالها؟ هل كنت المقصودة؟ أم أن هناك فتاة أخرى تحمل هذا الاسم؟

ثم، من بين الأشجار الكثيفة، خرج طيف، ملامحه غير واضحة، وكان يحمل شيئًا في يده كأنه ختم أو رمز محفور بحروف لا تنتمي إلى أي لغة أعرفها. لم يقترب كثيرًا، لكن صوته وصل إليّ دون أن يفتح فمه: "إن كانت القلادة قد اختارتك فلا عودة لك بعد الآن."

غمرني شعور غريب، لا هو خوف ولا راحة، بل مزيج مقلق كأنني سقطتُ في حلم لا يمكنني الاستيقاظ منه. والقلادة بدأت تحترق على بشرتي. رفعت يدي عنها، لكنها لم تكن تحترق نارًا، بل كأن جلدي يتوهّج من تحتها، ينبض بضوء خافت كأنه قلب ثانٍ وُلِد للتو.

خطوتُ للخلف، فانشقت الأرض فجأة أمام البحيرة، كما لو أن أنفاس الغابة أطلقت زفيرًا طويلًا. تساقطت أوراق سوداء من السماء؛ لا ريح، لا شجرة قريبة، فقط سقوط ناعم، كثيف، مثل حزن قديم ينساب في الهواء.

ثم... سَمِعتُ صوت خُطى. لم يكن وقعها ثقيلًا، لكنه لم يكن بشريًا تمامًا، كأن كائنًا يمشي بأقدام من خشب رطب على أرض لينة. أدرت وجهي بحذر، وقلبي يتردد بين الركض والانتظار. ومن بين الضباب ظهر شخص. لم أستطع تحديد ملامحه؛ كان مغطًى برداء رمادي، وجهه نصف مغطًى بوشاح داكن، وعيناه تلمعان بلون غريب... لون لا أستطيع تسميته. توقّف على مسافة آمنة، ولم يقترب.

قال بصوت خفيض، كأنه يخرج من حجر قديم: "لم يكن من المفترض أن تأتي الآن."

نظرت إليه أبحث عن تفسير، عن معنى، عن أي شيء يُشعرني أنني لم أفقد عقلي. سألته، وبالكاد خرج صوتي: "أين أنا؟"

ردّ دون تردد:" في كاثرينا... حيث تختارك الأرض، أو تبتلعك."

ارتجف الهواء من حوله، وبدأت الأشجار خلفه تتحرّك بلا سبب. ثم تابع، بنبرة أخفّ قليلًا لكنها لا تزال تحمل ثقل المعرفة: "تعالي... قبل أن يُغلق الطريق."

نظرت خلفي، فوجدت البحيرة تعكس سماءً لا تشبه السماء... ثم نظرت إليه. وسرت. قلت له، وأنا ما زلت مترددة: "ماذا عليّ أن أفعل؟ هل الطريق آمن؟"

ابتسم ابتسامة خفيفة، لم تكن مطمئنة، لكنها حملت ثقة غريبة: "لا شيء في كاثرينا آمن. لكن الطريق الوحيد للخروج من هنا هو هذا الطريق. إذا أردتِ أوفاليس، فلا خيار أمامك."

شدّ على ذراعي برفق، وبدأنا السير بين الأشجار الكريستالية التي كانت تتحرك دون ريح، وتصدر أنينًا خافتًا يختلط بخفق قلبي المتسارع. تحت أقدامنا، الحجارة تتنفس وكأنها تراقبنا، وتهمس بأسماء لا أعرفها.

كان صامتًا معظم الوقت، كأنه يستمع إلى صوت لا يسمعه سوانا. لكنه أحيانًا يلتفت إليّ ويقول بهدوء: "الغابة لا تسمح لأحد بالعودة، لكنها تختبر من يستحق الدخول."

مررنا بجانب طيور الدخان السوداء التي تذوب في الهواء، كأنها أشباح من عالم آخر. وكنت أشعر بثقل النظرات الغامضة تتابعنا في كل خطوة.

ثم قال: "يجب أن نصل قبل أن يُغلق الطريق. بعدها، لن يكون هناك سبيل للخروج... إلا لمن تستحقه كاثرينا."

تسارعت خطواتي، وأنا أتمتم لنفسي: "هل أنا من تستحق؟ أم مجرد ضحية في لعبة أكبر مني؟" لم أسأله عن اسمه، شعرت أن الوقت لا يسمح بذلك.

تقدّمت نحو مخرج الغابة، وشعرت بالبرودة تتسلّل إلى عروقي، والقلادة على عنقي تشعّ بضوءٍ متزايد. كانت هذه بداية شيء لم أكن أعلم مدى عمقه بعد.

تقدّمنا خطوات قليلة أخرى، والضباب بدأ يلفّ المكان بحجاب كثيف. لم يتكلم، لكن وجوده كان ثقيلاً كحجرٍ غامض على صدري.

حين وصلنا إلى مخرج الغابة، توقّف للحظة، ونظر إليّ نظرة تجمع بين الحذر والاعتراف بصعوبة ما ينتظرنا ثم قال: "أوفاليس ليست ملجأً بقدر ما هي اختبار... وما بعده، لا يمكن التراجع."

لم أجب. كان كل شيء داخلي يصرخ بالخوف والفضول معًا.

ثم انفتح الطريق أمامنا، وأغلقت الغابة خلفنا، كأنها ابتلعتنا بالكامل، تاركة وراءها الصمت... والحيرة.

لم أعد أسمع أصوات الغابة. كان الهواء هنا مختلفًا...كثيفًا، كأنني أتنفّس ماءً. ضبابٌ خفيف يزحف عند قدميّ ككائن حيّ يراقبنا بصمت.

الرجل الذي أرشدني للخروج من الغابة لا يزال يمشي أمامي، صامتًا. قامته طويلة، وكتفاه مشدودان كما لو أنه يحمل عبئًا خفيًا. خطواته ثابتة لكنها متوترة، كأنه يتوقع شيئًا خلف كل شجرة نمرّ بها.

توقفت عن السير فجأة وسألت، وقد ارتفع صوتي دون قصد:"ما هذا المكان؟ ولماذا أنا هنا؟!" تجمّد في مكانه، ثم استدار نحوي ببطء، ونظر إليّ كأنني قلتُ شيئًا لا يجب أن يُقال. كانت نظرته صدمة حقيقية... عيناه اتسعتا، حاجباه ارتفعا قليلًا ثم انعقدا بسرعة، كأن عقله يحاول اللحاق بكلماتي.

قال بصوت خافت، كمن فقد اليقين: "ألم... تخبرينا أنكِ قادمة؟"

دقّ قلبي بعنف. لم أفهم. لم أستطع حتى الرد بسرعة. تمتمت: "أنا؟ أخبرتُ من؟ أنا لا أعرف أحدًا هنا!"

نظر إليّ طويلًا بعينين مليئتين بالريبة، ثم أدار وجهه جانبًا كمن يراجع ذكرياته. تنفّس ببطء، لكن قبضته على سلاحه الصغير قرب خصره اشتدت أكثر.

"الرسالة وصلت..." قالها كأنه يحدّث نفسه، ثم نظر إليّ مجددًا، "لم تكن تحمل اسمًا، فقط معلومة بوصول شخص إلينا."

اتسعت عيناي، وشعرت ببرودة تسري في ظهري. كان الجو ساكنًا لدرجة أنني سمعت دقات قلبي:"من أنتم؟ وكيف تصلكم رسالة عني دون أن أعلم بها؟!"

اقترب مني خطوة محسوبة، وكتفاه لا يزالان مشدودين، كمن يخشى أن أختفي أو أهاجمه:"لا أستطيع أن أخبرك بشيء الآن. عليكِ أن تري بنفسك..."

رفعت رأسي قليلًا، ونظرت إليه بتوتر، وصوتي خرج أخفض من الهمس:" أرى ماذا؟"

لم يجب مباشرة. تنهد كمن خذله الوقت، ثم نظر إليّ بعينين أكثر هدوءًا، لكن ما زال في ظلّهما شيء خفي:"أنا لست وحدي... هناك آخرون بانتظارك."

في تلك اللحظة، شعرت بأن الأرض من تحتي لم تعد ثابتة. العشب بدا أكثر سوادًا، الضباب ارتفع قليلًا، كأن المكان تنفّس بدلاً عني.

نظرت إليه مجددًا، وهمست دون أن أعي:"من أنت؟"

ابتسم تلك الابتسامة التي لا تُطمئن، قصيرة، مشوبة بشيء من الألم:"اسمي كيران." قالها، ثم استدار ومضى.

أما أنا، فقد تبعته. ليس لأنني أثق به، بل لأن المكان خلفي بدا وكأنه لن يسمح لي بالرجوع.

مشينا في صمت ثقيل. لا هو تكلّم، ولا أنا استطعت فتح فمي. في داخلي كان هناك صخب لا يُحتمل... الأسئلة تتزاحم في رأسي بلا إجابة:"لماذا أنا هنا؟ من هؤلاء؟ من أرسل تلك الرسالة الغريبة عني دون علمي؟ ولماذا لا يخبرني بشيء؟"

كل فكرة كانت تجرّ خلفها خوفًا آخر. ومع كل خطوة، كان عقلي يغوص أعمق في هوّة لا أرى لها قاعًا.

الليل بدأ يهبط ببطء، كستارة سميكة تُسدل على هذا العالم الغريب. السماء بلون بنفسجي شاحب، لا نجوم فيها، لكن خيوط ضوء خافتة متقطعة كانت تومض بين الغيوم، كأن السماء تحاول أن تتكلم بلغتها الخاصة.

ثم... رأيتها. مدينة "أوفاليس".

لا أعلم كيف لم أنتبه لاقترابها. فجأة ظهرت من بين الأشجار الأخيرة، كأن الأرض نفسها أزاحت الستار عنها.

كانت المدينة كأنها نُحتت من حجر حيّ. مبانيها ترتفع ملتوية كاللوالب، نوافذها طويلة وضيقة، مضاءة بأضواء خضراء وزرقاء تهتزّ كأنها تتنفس. لا سقوف مستوية، لا شوارع واضحة، بل ممرات تلتفّ وتصعد وتهبط، كأنها تخضع لنبضٍ خفي.

الناس؟ لم أرَ أحدًا... لكنني شعرت بعيون تراقبنا من خلف الزجاج الداكن، ومن بين فتحات الجدران. جو المدينة كله كان غامضًا، ساكنًا أكثر مما ينبغي.

كيران لم ينظر حوله، سار بخطى واثقة كمن يعرف الطريق عن ظهر قلب. كنت أسير خلفه، ألتفت أحيانًا، وأشعر بشيء ما خلفنا... أو فوقنا.

توقف أخيرًا أمام منزل يبدو أقدم من غيره. بابه منحوت من خشب داكن جدًا، عليه رموز غريبة لا أفهمها. النوافذ مغلقة، لكن الضوء من الداخل بدا كاللهب... حميميًا ومريبًا في آنٍ معًا.

التفت إليّ ونظر في عيني مباشرة، ثم قال بهدوء:"إنهم بالداخل. لا تقولي شيئًا حتى تسمعي كل شيء."

ثم دفع الباب ببطء، وصوت الخشب صرخ كمن يتألم.

كان المكان دافئًا، على عكس برد المدينة في الخارج. الجدران مغطاة بأقمشة حمراء مطرّزة برموز لا أفهمها، ورائحة بخور حادّة تخترق الأنف وتترك طعمًا غريبًا في الفم. في وسط الغرفة، طاولة خشبية كبيرة، حولها وقف شخصان... أو بالأحرى، كانا ينتظرانني.

الأول: شاب قصير الشعر، في الثلاثينات من عمره، بشرته شاحبة قليلًا، وعيناه سوداوان بشكل لافت. يرتدي معطفًا أسود طويلًا يلامس الأرض، وكان يحدّق بي دون أن يرمش. ساكن تمامًا.

الثانية: فتاة أقصر منه بقليل، شعرها أبيض كالثلج، مضفور بإحكام إلى الخلف. عيناها واسعتان، بلون غريب بين الفيروزي والرمادي. تميل برأسها قليلًا، تراقبني باهتمام كمن يقيّم شيئًا ثمينًا. لم تكن تبتسم، وملامحها لم تكن قاسية... بل غريبة.

كيران أشار إليّ دون أن يلتفت إليهما وقال:"هذه... هي."

وبدأت نظراتهم تخترقني.

ثم أشار لي بالجلوس دون أن ينطق، وجلسنا في صمت ثقيل. فجأة، كانت الفتاة أول من كسر الصمت، بصوت هادئ له وقع مميز:"كنت أظن أنكِ لن تأتي. الحمد لله وصلتِ في الوقت المحدد."

نظرت إليها بفضول، ولم أعرف كيف علمت بقدومي.

ثم قال الشاب بصوت حازم يخترق الصمت:"كنا نتواصل عبر الرسائل فقط...الآن حان الوقت لتتعرفي علينا."

أخذ كل منهم وقتًا ليعرّف عن نفسه.

بدأت الفتاة:"اسمي رانيل. أنا عمياء، لكن لا يضلّني ظلام. أرى الحقيقة خلف الظلال، وأسمع نيران الكذب تصفر في أذنيّ. أنا الحارسة الوحيدة القادرة على كشف الخداع والسراب."

ثم تحدث الشاب الصامت، صوته منخفض، لكنه يحمل ثقل الخبرة:

"أنا نويس، الصامت الذي لا يتكلم إلا حين يغضب قلبه، ولا يحزن إلا حين تبتسم له السماء. مكاني هو ظل الغابة المحرمة، وأنا الوحيد المسموح له بمعرفة أسرارها وحمايتها."

وأخيرًا، نظر إليّ كيران بابتسامة غامضة وقال:

"أنا كيران، المنفي الذي يتحدث مع عناصر الطبيعة. مكاني هو الجسر بين هذا العالم والغابة المحرمة، وأحد القلائل الذين يُسمح لهم بعبورها. أنا القائد."

كانت الأنظار كلّها تتجه إليّ بترقّب. وعندما نطقتُ باسمي وأخبرتهم أنني مجرد طالبة جامعية، ارتسمت على وجوههم ملامح من الدهشة العميقة، كأنني لم أكن الشخص الذي كانوا ينتظرونه.

"أنا فقط... طالبة."

كلماتي وقعت في المكان كقطرة ماء على جمر. لم تصدر صوتًا، لكنها غيّرت كل شيء.

توقفت رانيل عن الحركة. بقيت واقفة، تحدّق بي بعينيها المتوهجتين بلون العقيق، كأنهما تريان ما خلف جلدي، خلف الحقيقة التي لفظتها تَوًّا.

كان كيران أقربهم إليّ، أراه بوضوح. حدق بي طويلًا، ملامحه المتزنة تحاول الفهم، تعيد ترتيب الأحداث في رأسه. رفع حاجبه قليلًا، ثم قال بصوت منخفض:

"هذا... لا يُعقل."

أما نويس، فكان أكثرهم حركة. تقدّم بخطوة حادّة، عباءته السوداء ترفرف من حوله كظل حي. لم ينظر إليّ بغضب، بل بدهشة حارقة. تمتم:

"إذا لم تكوني المنادية... فمن أنتِ بحق الظلال؟ وكيف عبَرتِ الصدع؟"

لم أعرف ماذا أقول. نظرت إلى كفّي كأن الإجابة قد تكون هناك. خائفة، مضطربة، لا أعلم من أين أبدأ.

"أنا لا أنتمي إلى هذا المكان. لا أعرف حتى كيف وصلت. كنت في غرفتي أراجع دروسي... ثم ومضة... كأن العالم تمزق للحظة، ووجدت نفسي هنا."

أنزلت رانيل يدها ببطء، وساد الغرفة صمت ثقيل، كأن الجدران نفسها تنصت لاعترافي السخيف. لم ينطق أحد، لكن نظراتهم قالت كل شيء.

استدار كيران مبتعدًا خطوة، وظهره لي الآن. مرّر يده في شعره بحركة توتر مكتوم.

قال نويس، كأنه يحدّث الفراغ: "لقد استدعينا المنقذة... الوحيدة التي تتطابق مع كل العلامات، كل الرموز. لا مجال للخطأ."

همست رانيل، ببطء وعينين ثابتتين عليّ: "لكن ما نراه الآن... هو الخطأ ذاته."

شعرت وكأن الأرض تميد تحت قدميّ. قلت بصوت مكسور: "أنا آسفة... لم أطلب أن أكون هنا. أريد فقط... أن أعود."

رفع كيران رأسه، وصوته خافت لكنه محمّل بثقل العالم:

"نحن لا نملك طريقة لإعادتك. لم نعبر من قبل إلى عوالم أخرى. كان هذا... أول نداء، أول شرخ."

حدّقت بهم. لم أعد أشعر أنهم ينتظرون مني تفسيرًا، بل صاروا يخشون ألا يكون هناك تفسير... وأن كل ما آمنوا به كان وهمًا.

اقتربت رانيل خطوة. وجهها لم يكن صارمًا ولا لينًا، بل محايدًا بشكل مخيف. سألت:

"هل حلمتِ قبل قدومك بهذا المكان؟ بأي شيء...؟"

هززت رأسي: «لا... لم أحلم بشيء. لا أعرف أوفاليس، ولا نداءكم، ولا منقذتكم... فقط اسمي... ومخاوفي."

ساد الصمت. ثم نطق نويس، بوجه كئيب كأنه وُلد من النهايات:

"ربما لم نفتح الطريق... بل كنا وسيلة. هناك من أرادها أن تكون هنا، لكن ليس لأجلنا."

تبادل الثلاثة نظرات صامتة، كأنهم سمعوا جملة نُسخت من سفر قديم، لا يجرؤ أحد على قراءته. أما أنا، فوقفت بينهم، نصف جسدي في عالم لا أعرفه، ونصف روحي في عالم لا يمكنني العودة إليه.

وكل ما في عيونهم قال لي شيئًا واحدًا: "أنا لا أنتمي إلى هذا المكان."

لم أفهم شيئًا حين غادروا، وتركوني في الغرفة وحدي. ساد صمت لا يُحتمل. لم يكن صمتًا عاديًا، بل كأن الغرفة نفسها تحبس أنفاسها، تنتظر شيئًا... مثلي تمامًا.

جلست على طرف السرير، تحسست يديّ المرتجفتين، وشعرت بالبرد يتسلل من الحجارة تحت قدمي. الجدران كانت غريبة... مصقولة بيد غير بشرية، يشعّ منها ضوء كئيب ينبعث من الشقوق، لون بين الأزرق والأخضر... كأنني داخل قلب مخلوق حي.

أغمضت عينيّ للحظة. هذا ليس حلمًا، صحيح؟ كنت قبل ساعات فقط في غرفتي، أراجع آخر ملاحظاتي استعدادًا للامتحان. والآن؟ أنا في مكان لا أعرفه، لا أفهمه، بين أشخاص ينظرون إليّ كما لو أنني نذير شؤم.

قالوا إنهم كانوا ينتظرون "المنقذ". ظنوا أنني "الشخص العظيم" الذي سيغيّر كل شيء...

لكنني مجرد طالبة. لا أحمل سيفًا، ولا أمتلك قوى. بالكاد أفهم ما يحدث. وكلما نظرت في عيونهم، رأيت الخيبة، وكأن وجودي خيانة لأسطورة آمنوا بها.

أريد فقط أن أعود.

لكنني لا أعرف الطريق... ولا يبدو أنهم يعرفونه أيضًا.

"يبدو أنني دخلت كابوسًا بلا باب للخروج..."

***

وفي الغرفة المجاورة، كانت الحقيقة تُبحث بهمس حاد.

وقف كيران أمام المدفأة الصغيرة، يراقب اللهب وكأن فيه أجوبة لم يجدها بعد. قال بصوت خافت، لكن حازم:

"هذه الفتاة ليست مَن ننتظر. طقوسنا لم تكن كاملة... ربما تداخلت مع قوى أخرى."

نويس، الذي كان يدوّن ملاحظات على ورقة غريبة الملمس، رفع رأسه وقال:

"أو ربما هي بالفعل استُدعيت... لكن ليس من قِبلنا. إذا كانت جهة أخرى قد استدعتها... فقد نكون أمام خطر أعظم مما نتخيل."

كانت رانيل تحدّق في الأرض، أصابعها تشدّ على حافة عباءتها:

"وماذا لو كانت مجرد بشرية عادية؟ فتاة تائهة بين عوالم لا علاقة لها بها؟"

نظر كيران إليها، ثم قال ببطء:

"في كلتا الحالتين، وجودها هنا خطأ. سواء كان بفعل قوى معادية... أو بسببنا. وهي لا تعرف شيئًا... وهذا أفضل. لن نخبرها بشيء حتى نفهم ما نحن مقبلون عليه."

أضاف نويس: "إن كانت مراقَبة، فقد تكون القوى الأخرى تترصد خطواتها... أو خطواتنا."

رفعت رانيل عينيها ببطء وقالت: "علينا إبقاؤها قريبة، تحت أنظارنا. ولا كلمة واحدة عن المنقذ... أو عن أوفاليس."

خيّم صمت ثقيل عليهم.

(٢)

بدأ اليوم كما لم أتوقّع أبدًا. جاءت رانيل تطرق باب غرفتي بحزم، وصوت خطواتها كان يرنّ كصدى في أرجاء المكان الهادئ.

"آريانا، يجب أن تذهبي معنا."

ارتبكت. لم أفهم لماذا فجأة أصبحت تأمرني وكأنني قطعة يجب تحريكها.

عندما فتحت الباب، استقبلني هدير بعيد وصرير أجنحة ضخمة. كانت الردهة تعجّ بجلبة غير مألوفة: أصوات خافتة، همسات متوترة، وخطوات سريعة غير بشرية.

وقفت أمامي ثلاث كائنات غريبة، تشبه الخيول لكن برؤوس نسور، وعيونها تتوهّج كالزمرد. تنتهي أرجلها بمخالب حادة تحفر الأرض، وأجسادها مغطاة بريش أزرق وأسود متداخل ينبعث منه بريق خافت تحت الضوء الكئيب.

كان نويس، كيران، ورانيل يقفون بجوار هذه الكائنات، يتبادلون كلمات سريعة لم أتمكن من فهمها كلها.

قال نويس بنبرة مشدودة: "يجب أن تبقى تحت رقابتنا. لا نعرف من أرسلها."

كيران ردّ بهدوء: "نحن بحاجة إليها هنا. ولو لم تكن هي، فلن نُخاطر."

أضافت رانيل، وعيناها لا تخفيان القلق: "الحدث أكبر مما نتصور... ووقتنا محدود."

حاولت أن أسأل عن معنى كل هذا، لكن كيران رفع يده قائلاً بحزم: "اسكتي، فقط اتبعي تعليماتنا."

ثم جاء الموقف الغريب: الكائنات كانت ثلاثًا، ونحن أربعة، فاضطررت إلى اختيار أحد الحراس لأرافقه على ظهر أحدها.

نظرت إليهم بقلق، وشعرت بتوتر لا يوصف. رغم حدة نظرات كيران وقوة جسده، إلا أنني شعرت براحة غريبة حين اقتربت منه، كأن دفئًا غامضًا يحيط بي وسط هذه الفوضى. أما نويس، فكان منزعجًا من وجودي. ورانيل، بتلك النظرة الباردة، لم تُبدِ أي اهتمام.

لم أتردد كثيرًا. رفعت قدمي وجلست خلف كيران، الذي لم يعارض، بل ألقى إليّ نظرة سريعة، تحمل معنى الحماية.

وسط التوتر، حاولت أن أبدو هادئة. لكنني تعثّرت فجأة، وسقطت على ركبتي أمام الجميع.

رفع نويس حاجبه وقال بحدّة: "هل أنتِ غير منتبهة؟! هذا ليس وقت الأخطاء!"

لكن كيران تدخّل بسرعة، وقال بنبرة دافئة: "هي فقط خائفة، دعها."

احمرّت وجنتاي من الحرج، وشعرت بالذلّ وأنا أحاول النهوض بسرعة.

ركبنا الكائنات، وبدأنا التحرك بسرعة غريبة. الهواء يصفع وجهي، مزيج من الصفير والهمس.

كانت الطبيعة حولنا تبدو مشوّهة. الأشجار بأغصانها المتشابكة تقترب كأنها تراقبنا، والسماء تتلوّن بألوان غريبة: البنفسجي، البرتقالي، وما بينهما.

أغمضت عينيّ، وأخذت أتنفّس بعمق، أحاول تهدئة قلبي الذي يخفق بعنف.

ترجّلنا فجأة عند مدخل كهف مظلم.

تابعت خطوات كيران بصمت، محاوِلةً السيطرة على رجفة يدي. ثم... حدث شيء غريب. أصبح الهواء أثقل، كأن جدران الكهف بدأت تتنفس. شعرت بوخزة فوق قلبي.

ثم رأيتها.

بلورة كبيرة مثبّتة على الجدار، بدأت تتوهّج بلون أحمر داكن، كأنها استيقظت. أردت أن أسألهم عمّا يحدث، لكن الكلمات خذلتني. اكتفيت بالتحديق.

ثم سُمِع ذلك الصوت...لا أستطيع وصفه. لم يكن صوتًا بشريًا، ولا يشبه زئير الوحوش، بل كان كأنين قديم، صوت كائن استيقظ من سبات عميق فقط... لينظر إليّ.

رأيت نورًا يتجمّع في وسط الكهف، وظهر كائن غريب، مهيب. جسده كضوء يتكاثف ويتلاشى، عيناه بلا ملامح، لكنه كان يحدّق نحوي... شعرت بذلك في أعماقي. تجمّدت في مكاني، عاجزة عن التنفّس. اقترب مني، لا بخطى، بل كأنه يسري في الهواء. توقف على بُعد خطوة، ثم سكن. شعرت به... ينظر إلى شيء في داخلي. لكن لم يحدث شيء. لا علامة، لا كلمة، فقط صمت طويل، ثقيل...

ثم بدأ الكائن يتلاشى، كخيط دخان في مهبّ الريح، حتى اختفى. واختفى معه النور، وعاد الكهف إلى سكونه، وكأن شيئًا لم يحدث.

تقدّمت رانيل خطوة. كانت ملامحها جامدة، لكن الحزن في عينيها لا يمكن إنكاره.

نويس، كعادته، لم يُفوّت الفرصة، قال ساخرًا وهو يلوّح بيده:

"هل هذا كل شيء؟ كنت أتوقّع انفجارًا، أو على الأقل علامة سحرية! هذا وحده يثبت أنها ليست المنتظرة. مضيعة للوقت."

نظرت إليه بحدة، لكنني لم أردّ.

رانيل بقيت واقفة، تنظر إليّ وكأن شيئًا انكسر في داخلها، همست وكأنها لا تريد لأحد أن يسمع: "لكنه استيقظ... لم يفعل ذلك منذ عقود."

ضحك نويس بمرارة: "ربما نهض فقط ليشمّ الهواء النقي! لا تبالغي، رانيل. لم يحدث شيء. إن كانت المنتظرة فعلًا، لكان الكيان قد تكلّم أو... أيًّا يكن ما ترويه القصص القديمة."

شعرت بالحرج يتصاعد داخلي. لم أفهم ما الذي حدث... ولا ما الذي كان يُفترض أن يحدث. شعرت أنني عبء ثقيل، في مكان لا أنتمي إليه.

أما كيران، فظلّ واقفًا في مكانه. لم يقل شيئًا. عيناه كانتا عليّ طوال الوقت، تراقباني بصمت غريب. لا اتهام، ولا سخرية... بل شيء لا يمكنني تفسيره.

خيّم علينا صمت طويل، ثم قالت رانيل بهدوء:"علينا العودة... لا فائدة من البقاء."

ركبوا كائناتهم مجددًا، أما أنا، فقد بقيت لحظة إضافية، أحدّق في المكان الذي اختفى فيه الكائن، وأنا أتساءل: إن لم أكن الشخص الذي ينتظرونه...لماذا شعرت أن ذلك الكائن كان يعرفني؟

لم أعد أشعر بقدميّ عندما دخلنا البيت. كان كل شيء صامتًا بشكل غريب...خانق. خطواتنا كانت ثقيلة، وعيناي تتجنبان الجميع، كأن شيئًا ما بيننا قد انكسر دون أن نفهم متى أو كيف.

تسللتُ إلى غرفتي، أغلقت الباب خلفي، وجلست على طرف السرير أحتضن ذراعي. لا أعرف إن كنت أرتجف من البرد، أم من ذلك الشيء الذي استقر في قلبي منذ خروجنا من الكهف. كل شيء هناك كان أكبر مني، أغرب مني... وكأنني مجرد دمية في عرض لا أفهمه.

وفجأة...صرخات في الخارج!

نهضت بفزع. اقتربت من النافذة بحذر، سحبت الستارة قليلاً، واختبأت خلفها، كأنني لا أريد للناس أن يروني. رأيت الحراس يندفعون خارج المنزل، وسمعت جلبة الحشود في ساحة أوفاليس. كانت قلوبهم تغلي، وأصواتهم كسكاكين.

"أكاذيب!" صرخت امرأة من بين الجموع، وكان صوتها كصفعة على وجهي.

"أين هي المنقذة؟!" صرخ رجل آخر، وبدا أن الدموع حفرت أخاديد في وجهه.

الكل يتحدث عن النبوءة... عني. أنا؟ المنقذة؟ أي نبوءة تلك التي يتحدثون عنها؟ وأين هي تلك القوة التي تحدثوا عنها؟ حتى أنا لم أفهم ما حدث في الكهف.

تعالت أصواتهم، والاتهامات انهمرت على الحراس كالسيل:"كذبتم علينا!"

"منذ متى نُسلِّم مصير أوفاليس لأوهام؟!"

"هي السبب! منذ ظهورها ونحن نغرق أكثر!"

كتمت أنفاسي خلف الستارة. لم أعد أشعر بقلبي، كأنه توقف من شدة الرعب.

أنا؟ السبب فيما يحدث؟...

كانت كلماتهم تضربني بقوة. بدأت أرتعش. لم أرد سماع المزيد، لكنني لم أستطع التوقف عن الاستماع.

رأيت شابًا يصرخ في وجه نويس ويدفعه، وآخرين ينوحون كأنهم في جنازة...

ثم، كأن شيئًا من السماء نزل على الأرض، دوّى صوته: "كفى!"

تجمّد كل شيء. كان كيران. رأيته يشق طريقه بين الناس، كل خطوة منه كانت كالطمأنينة وسط بحر من الذعر.

قال بصوته الذي لا يُجادَل:

"كفى هلعًا... كفى صراخًا. نحن لا نملك كل الأجوبة بعد. نعم، لم تحدث المعجزة... بعد. لكن هذا لا يعني أن كل شيء قد انتهى."

ثم نظر إلى الأعلى، إلى السماء التي بدت موحشة أكثر من أي وقت مضى، وأضاف: "المنقذ لا يُحكم عليه من أول لقاء... وأحيانًا، تكون البداية مجرد شرارة صغيرة."

قالها بهدوء... وكأنه يعلم شيئًا لا نعلمه.

وأنا... كنت واقفة خلف نافذتي، أحمل في داخلي كل الأسئلة، كل الخوف... وكل هذا الشيء الذي لا أفهمه بعد. لكن شيئًا في نظرة كيران جعلني أشعر... أن القادم ليس مستحيلاً.

دخل الحراس المنزل، كأن العاصفة دخلت معهم. كان كيران آخر من عبر العتبة، جسده طويل كجدار، وخطواته صلبة كالصخر. أغلق الباب خلفه، ثم استدار.

عيناه التقتا بعينيّ. لبرهة، لم يعد في العالم سواهما. عينا كيران. لم تكونا قاسيتين... بل مضطربتين. نظرة الجندي حين يرى نارًا لا يستطيع إخمادها.

قال بصوت منخفض:"تحتاجين إلى الهواء، آريانا. تعالي معي."

خرجت معه إلى الحديقة. لم أعرف لماذا وافقت. ربما لأنني لم أعد أحتمل السجن، أو ربما... لأن صوته لم يكن يأمرني، بل كان يستدعيني.

جلسنا. كانت الحديقة شبه ساكنة، إلا من نسيم يهمس بأسرار الأشجار.

لم أتمالك نفسي، خرج صوتي هشًّا: "لا أحد يريدني هنا، أليس كذلك؟"

التفت إليّ ببطء. لم يُجب.

"أنا لست منكم. لا أفهم قوانينكم، ولا حتى هذا الجسد الذي أعيش فيه. أبدو غريبة عليكم... وأبدو غريبة على نفسي."

نزلت دموعي، ولم أحاول إيقافها.

"وأنتم... لا تفعلون شيئًا سوى المراقبة. نويس يكرهني، رانيل لا تكلمني، وأنت...تراقبني كأنني سلاح قد ينفجر في أي لحظة."

ظل كيران صامتًا، لكن قبضته انغلقت على ركبته بقوة، وكأن الكلمات اخترقت درعه السميك.

"هل تعرف ما أشعر به؟ أنني مُستعملة. أداة. كأن شخصًا ما رماني هنا وقال لي: أنقذي العالم."

عندما تكلم، خرج صوته غليظًا، مشدودًا كوتر:

"أنتِ لست أداة. لو كنتِ كذلك، لما حاولتِ حتى أن تفهمي ما يحدث."

تنفّست بصعوبة، ثم همست:

"إذن... ما الذي يحدث فعلاً؟ عن أي نبوءة تتحدثون؟ من المنقذ الذي تنتظرونه؟!"

انخفض صوته، لكنه كان أصدق من أي مرة سمعته فيها:

"أطفال أوفاليس يولدون مرتبطين بنور داخلي... نُسميه جوهر الحياة. هو ما يجعل أجسادهم تنمو، عقولهم تتفتح، وأرواحهم تتوازن مع نسيج هذا العالم."

سكت لحظة، وكأن الجملة التالية ثقيلة عليه:

"منذ سنوات، بدأ هذا النور يُسحب منهم. لا مرة واحدة، بل ببطء. أول ما يتغير هو لون أعينهم... تصبح باهتة، كأن أحدًا أطفأها. ثم يتوقفون عن الحركة، عن الكلام، عن الضحك. كأن شيئًا في داخلهم يُنتزع خيطًا بعد خيط. وفي النهاية... ينامون."

بلعت ريقي، وشعرت بقشعريرة تزحف على ظهري.

"لا يموتون، آريانا. لكنهم لا يعيشون أيضًا. أجسادهم تبقى، أما أرواحهم... فلا نعلم إلى أين تذهب. نحن نخسرهم، واحدًا تلو الآخر. وهذا ما يجعل أوفاليس تنكمش. تتآكل. نحن لا نحمي أرضًا فقط... نحن نحمي قلوبنا."

نظرت إليه، فوجدته لا يتهرّب من عينيّ. بل يحدق فيهما بثبات.

لكنه فجأة أدار نظره، وكأن شيئًا ما داخله قد تسرّب دون إذن.

قلت بخفوت:"وأنا؟ ما موقعي من كل هذا؟"

تحرّك فكه، كأن الإجابة ثقيلة، ثم قال:

"أنتِ خارج نسيجنا... وهذا ما يخيف بعضنا. لأننا نُدرك، حتى دون أن نعترف، أن الحل قد لا يأتي من داخل أوفاليس، وهذا ما تقوله النبوءة."

مرت لحظة طويلة بيننا. كنت أراه يقاوم. يُمسك لسانه، وعينيه، وحتى يده التي أرادت أن تقترب... ولم تفعل.

قلت أخيرًا: "أنا لست منكم، لكن قلبي ينبض كلما نظرت إلى تلك الشجرة في الساحة. هناك شيء يجذبني. شيء يقول لي: أنتِ لست عابرة."

فاضت نظراته للحظة، ثم انطفأت. قال بصوت أخير، حازم، عميق:

"أنا سأفعل كل ما يلزم لأحمي أوفاليس."

توقفت. شعرت أن في الجملة شيئًا ناقصًا. ثم التقت عيناه بعينيّ من جديد. هذه المرة، لم تكن صارمة. بل صادقة.

قالها ببساطة، دون زينة: "وسأفعل كل ما يلزم... لحمايتك أنتِ أيضًا."

لم أعرف كيف أتنفس بعدها. لكنه لم يتركني أحتار. نهض، نظر إلى السماء، ثم استدار نحوي وقال:

"أنا أثق بك يا آريانا. حتى لو لم أُظهر ذلك."

ثم مضى وتركني... لا أبكي، ولا أبتسم، بل أتعلّم كيف أؤمن.

***

استيقظت قبل ضوء الفجر بقليل. كان هناك شيء في الهواء... شيء لا يُرى ولا يُمسك، لكنه يُشعَر به بوضوح. هدوء ثقيل، كأن العالم يستعد لقول شيء مؤلم.

لم أسمع صوت الطيور، لا زقزقة عابرة، ولا خفق جناح. حتى النسيم الذي اعتدت أن يلاعب الستائر كل صباح، غاب. وكأن الطبيعة كلها قررت الصمت.

ثم جاء الطرق على الباب...سريع، مضطرب، وكأن من يطرقه لا يريد إحداث ضجة، لكنه عاجز عن التريّث.

تسللت خارجة من غرفتي، وخطوت على أطراف أصابعي.

كان الباب الخارجي مواربًا، وبجواره الثلاثة يتحدثون بهمس مشحون: كيران، رانيل، ونويس...الذي كان يحمل لفافة مربوطة بشريط أزرق داكن. كان ذلك اللون أشبه بندبة على رسالة؛ علامة على شيء لا يبعث على الطمأنينة.

فتح نويس اللفافة وتحدث بنبرة حذرة:

"ثلاثة أطفال... خلال خمسة أيام. نفس العلامة تظهر كل مرة، فوق القلب. لا بكاء، لا حركة، لا نفس. فقط نبض ضعيف، كأنه يتلاشى لحظة بعد لحظة."

ردت رانيل وهي تعبث بشعرها في حركة توتر:

"والقرى؟ كلها قريبة من الساق القديمة. كأن الجذور هناك بدأت تذبل."

كيران بصوت متوتر: "هل الكاهن أكّد أن النبض تراجع؟"

نويس: "تجاهل الأمر في البداية... ظنه اضطرابًا مؤقتًا، لكن بعد الليلة الماضية غيّر رأيه، حين جاءت رضيعة من أوفاليس... لا نبض ظاهر لها، كأنها ظلّ حيّ، لا أكثر."

حاولت فهم كلماتهم، لكنها كانت كالشفرات... مربوطة بشيء لا أعلمه جيدًا. شعرت بوخز بارد في أطراف أصابعي، لكنني فهمت أن الأمر يتعلّق بالأطفال، وأنهم في خطر.

رانيل: "لا يمكننا الانتظار. إن استمرّ هذا، سيتوسّع أكثر مما نتخيّل. يجب أن نتحرّك."

نويس وهو يشير نحو الباب: "وهي؟ لا يمكن أن تأتي."

كتمت أنفاسي خلف الحائط. كان يتحدث عني، وكنت أعلم ذلك تمامًا.

كيران بهدوء، لكن بثقة: "هي لن تبقى... ستأتي."

نويس باستنكار: "أنت تُخاطر، كيران. لسنا ذاهبين في نزهة."

كيران: "كلّ ما نفعله مخاطرة. وأنت تعرف أن هناك أشياء تتحرّك في الخلفية، وإن حدث شيء جديد، فربما وجودها يكون له معنى."

سكت نويس. كانت نظرته لكيران مشحونة، كأن خلفها جدالًا طويلًا لم يُقال، لكنه لم يعترض.

حين التفت كيران نحوي، لم يتفاجأ. كأن حضوري كان متوقّعًا.

لم يسألني شيئًا، فقط أشار برأسه...

خطوت خلفهم بصمت، لكن قلبي كان يركض. لم أكن أعرف إلى أين نحن ذاهبون، لكنني كنت واثقة من شيء واحد: هذا اليوم... لن يكون بسيطًا.

***

لم يكن البيت الذي زرناه بعيدًا عن الساحة الرئيسية، لكن الطريق إليه بدا وكأنه يمتد بلا نهاية. كل خطوة كانت تحمل ثقلًا جديدًا في قلبي.

في أوفاليس، كل شيء بدا باهتًا، كأن المدينة نفسها تخلّت عن ألوانها، كأنها رُسمت بريشة رمادية لا تعرف الفرح. لم يكن الأبيض أبيض، ولا الخشب صلبًا. أما الهواء؟ فكان يختنق في صدورنا، ثقيلًا كحمل لا يُحتمل.

الصمت كان يلفّ المكان بسحب قاتمة، لا يجرؤ أحد على كسره. دخلنا بصمت، كأننا نقتحم مأساة مسجونة.

وقفت أم الطفل هناك، بعينين خاويتين من الدموع، ووجهٍ يشبه الجدار الجاف، كأنها فقدت روحها قبل أن تفقد طفلها.

وقف نويس بجانب الباب، وصوته كان كمن يحاول بث حياة في ذلك الفراغ:

"سيّدتي، هل تسمحين لنا بأن نُلقي نظرة؟"

أومأت، بصوت أجوف أشبه بهسيس الريح: "تفضّلوا... لا تتركوني وحدي، رجاءً."

جلسنا حولها. رأيتها تهمس بكلمات غير مسموعة، كأنها تحاول استعادة ما تبقى من أمل. الطفل كان هناك... نائمًا؟ أم محاصرًا بين عالمين؟ وجهه الصغير كان هادئًا، بلا خدوش، لكن السكون الذي يحيط به كان قاتلًا؛ نوع من السكون الذي يسبق النهاية.

كان قلبي ينبض بعنف، لا أدري أهو خوف أم فضول. ثم شعرت بالدفء تحت قميصي، فوق جلدي... دفء غريب.

كانت القلادة. لم تكن مجرد قطعة من معدن، بل كانت تنبض بحياة سرية، بدفء يخترق الصمت، ويرتبط بشيء أعظم.

حركت يدي ببطء نحو الطفل، والدفء ينساب من قلادتي كأنه يريد أن يقول شيئًا. نظرت إليه، وعيناه مغلقتان، لكنني شعرت بشيء... رفة خفيفة من رموشه.

ثم، فجأة، ضوء صغير... كوميض الشمس عندما تلمس قطرات الندى. لم يكن يلمع فقط بين عينيّ، بل شعرت به داخليًا، كنبض خفيّ للحياة. تحرك صدر الطفل برقة، كأن الهواء عاد ليهمس فيه للحظة. انحنيت قليلًا، لكنني لم أجرؤ على اللمس، خشيت أن أكسر هذا الحلم الهشّ.

خلفي، كان صوت كيران خافتًا، كأنه يحاول كتم خوفه:

"هل... هل رأيتِ ذلك؟ هل كان حقيقيًا؟"

التفتُّ إليه. نظراته كانت محمّلة بالكثير: شكّ، قلق، وحذر لا يريد الإفصاح عنه.

لم أجب، لكنني شعرت بثقل نظرته يتبعني.

ثم كسر الكاهن صمت الغرفة: "العلامة... خفَتت."

اقترب الكاهن ببطء، يحدّق في قلب الطفل، ومدّ يده المرتجفة نحو دائرة باهتة بالكاد تظهر:"لم أرَ شيئًا كهذا من قبل... العلامة كانت تنمو وتكبر، لا تتلاشى."

تاقت الأم لسماع شيء من الأمل. كان صوتها يخرج من أعماق جرح: "هل يعني هذا... أنه لن يرحل؟"

كيران لم يتكلم، لكنه كان يراقبني بشدة، كما لو أن هذا الضوء الخافت يربطني بشيء لا يجرؤ على قوله.

في تلك اللحظة، كان قلبي ينبض بقوة أكبر من أي وقت مضى. كنت أعلم أن قلادتي تعرف أكثر مما أعرفه... كانت مفتاحًا لشيء عميق، وأكبر منّا.

بعد أن غادرنا بيت الرضيع، ومضينا في الطرقات الباهتة التي بدت لي كأنها أنفاس مطفأة تهمس بالحزن، شعرت أن كيران يراقبني بصمت. ثم، بنبرة خافتة لا يسمعها سواي، طلب أن نبتعد قليلاً... عن الناس، عن العيون، عن كل شيء.

مشينا بصمت حتى وصلنا إلى منعطف مهجور، تتآكل جدرانه من الزمن. وقفنا هناك، قرب جدار حجري قديم، والسماء الرمادية تُلقي بظلها فوقنا، وكأنها تريد أن تُخفي شيئًا مما نشعر به.

نظرت إليه، فوجدت عينيه معلّقتين بي، تحملان شيئًا لم أعتد رؤيته في كيران... تساؤلًا؟ قلقًا؟ لا أدري.

ثم قال بنبرة منخفضة بالكاد سمعتها: "آريانا. "

قالها بصوته العميق الهادئ كالعادة، لكن فيه نغمة خفية... نغمة تساؤل لا يريد أن يبوح بها بالكامل.

رفعت عيني إليه، وسبقتني كلماته: "العلامة خفَتَت... والرضيع رمش. فقط عندما اقتربتِ. "

أخفضت بصري. كنت أعلم أنه لا مفر من هذا الحديث.

"هذا لم يحدث من قبل". قالها كمن يخاطب نفسه، أو ذكريات بعيدة يحتفظ بها وحده.

تنهدت ببطء: " أنا أيضًا... شعرت بشيء. شيء غريب. كأن المكان يهمس لي، كما حدث حين رأيت الشجرة وسط أوفاليس. "

نظرت إلى الفراغ، كأن عينيّ تحاولان استدعاء ذلك المشهد من الذاكرة :لم تكن مجرد شجرة. كانت تنبض... لم أفهم حينها، لكنني خفت. "

كيران لم يقاطعني، فقط ظل يحدّق بي بذلك العمق الغامض الذي يملكه دائمًا، وكأن عينيه قادرتان على سحب الحقيقة من داخلي دون أن أنطق بها.

"وفي الكهف... حين نظر إليّ ذلك الكيان... شعرت كأنه يعرفني. ليس جسدي فقط، بل جوهري. رأى شيئًا في داخلي... شيئًا لا أفهمه حتى الآن. "

وضعت يدي فوق القلادة المعلقة على صدري. كانت دافئة. دائمًا ما تسخن في مثل هذه اللحظات.

"وحدث الأمر نفسه اليوم... عند الطفل. أشعر أن هناك علاقة بيني وبين هذا المكان... شيء يربطني به، رغم أنني لا أنتمي إليه. "

ثم صمتُّ لحظة، وبدأت أسترجع ذكرى بعيدة كانت مطموسة... حتى هذه اللحظة.

"كيران... تذكرت شيئًا. "

رفعت عيني إليه، كان ينظر إليّ، رأسه مائل قليلاً، وعيناه ثابتتان، لا يشوبهما تردد.

"في أول يوم دخلت فيه الغابة المحرّمة... قبل أن ألقاك، كنت ضائعة وخائفة... حينها سمعت صوتًا. لم يكن من الخارج، بل من داخلي. قال لي: "القلادة اختارتك."

ارتفع حاجباه قليلاً، لكن ملامحه ظلّت جامدة، كمن لا تفاجئه المعجزات.

"أعتقد أن ما حدث اليوم... لم يكن صدفة. هذه القلادة تحترق وتومض بشكل غريب... هذه الأرض... والطفل... كلهم مرتبطون بشيء لم أفهمه بعد. "

اقترب مني خطوة واحدة، وقال بهدوء يخفي تحته نارًا:

"إن كانت القلادة قد اختارتك، فهناك سبب لكن لا تنسي، آريانا، أن كل اختيار له ثمن. "

كنا ما نزال نقف قرب ذلك الجدار الحجري حين ساد صمت غريب بيننا. لم يكن صمت ارتباك... بل صمت تفكير. كيران كان يرمق الأرض، كأن الحجر يستطيع أن يهمس له بإجابات.

ثم رفع بصره إليّ فجأة. كانت عيناه أكثر جدية من المعتاد، وفي صوته نبرة قرار حاسم: "علينا أن نعرف. "

رمشت، مترددة: " نعرف ماذا؟"

"كل هذا، آريانا... القلادة، الطفل، الشجرة، الكهف... وحتى ما شعرتِ به عندما نظر إليك ذلك الكيان. لا شيء من هذا يحدث صدفة. "

اقترب خطوة، ثم أضاف بصوت منخفض كأنه لا يريد لأي ريح أن تنقل كلماته:

"من أخبرك أن القلادة اختارتك؟ علينا أن نعرف من هو، ولماذا. "

أحسست بجسدي يقشعرّ: "كان صوتًا... داخلي. لم يكن شخصًا... لم أره. "

هز رأسه ببطء، ثم قال وكأنه يفكر بصوت مرتفع: "أحيانًا... الأصوات التي لا نراها، هي الأهم. "

سكت لحظة، ثم نظر إليّ بعينيه الثاقبتين وقال: " سنعود إلى الكهف. "

تراجعت خطوة لا إراديًا: "إلى هناك؟"

"إن كنتِ المنقذة المنتظرة..." قالها بنبرة لم أفهم إن كانت يقينًا أم سؤالًا خفيًا، "فالكيان هناك وحده من يستطيع تأكيد ذلك. "

نظرت إليه، مشوشة: "وإذا كنتُ كذلك؟"

ابتسم ابتسامة لا تشبه الفرح، بل كابتسامة محارب يعرف أن كل جواب يحمل وزنه من الألم: "سيكون لكل ما حدث تفسير... ولوجودك هنا معنى. "

ثم اقترب أكثر، خفض صوته وكأنه يخشى أن تسمع الأشجار:

"لكن اسمعيني جيدًا، آريانا... لا تخبري أحدًا. ليس الآن. لا نريد إثارة جلبة أخرى... أو فوضى جديدة. "

أومأت برأسي، وأنا أشعر بأننا اقتربنا خطوة صغيرة من الحقيقة... لكنها خطوة في طريق موحش، لا نعلم نهايته.

كان الفجر بالكاد يهمس للنوافذ حين خرجنا، أنا وكيران، من المنزل بصمتٍ يشبه الخطيئة. الهواء كان نديًّا وباردًا، كأن الطبيعة كلها تُخفي أنفاسها حتى لا يرانا أحد.

مضينا بخطى خفيفة بين الظلال الممدودة، لا نتبادل الكلمات. فقط نظرات سريعة، وأفكار تضجّ في داخلي. كنت أعلم أننا ذاهبان نحو الكهف... إلى ذلك المكان الذي لا تزال جدرانه تحمل صدى الكيان الغامض... إلى حيث تغيّرت نظرتي لكل شيء.

حين وصلنا إلى تخوم الغابة، رأيت الحصان الأسود واقفًا هناك بجلالٍ لا يوصف. عيناه تشعّان بذلك اللون الغامق الذي لا هو بنيّ ولا أسود، بل لون يشبه الغسق حين يسبق العاصفة. مهيب، صامت، وكأنه يدرك تمامًا إلى أين نحن ذاهبان... ومن نكون.

مدّ كيران يده وربّت على عنقه، ثم التفت إليّ بنظرة لا تحمل سؤالًا، فقط يقينًا غامضًا. قال بصوته العميق الهادئ: "اركبي خلفي، وتمسّكي جيدًا."

تقدّمتُ بخطوات مترددة. كانت يداي ترتجفان حين أمسكت بكتفيه وجلست خلفه. شيء في داخلي كان يهتزّ، خوفًا؟ شوقًا؟ لا أدري. فقط شعرت أن هذه اللحظة ستُغيّرني، ولو بصمت.

حين انطلق الحصان، شعرت بالريح تشقّ الهواء أمامنا، كأنها تفتح لنا دربًا خاصًّا في عالمٍ لا يعرفه سوانا. الأشجار مرّت بجانبنا كأشباح راكضة، والسماء فوقنا بدت وكأنها تحبس دمعة.

لم أُطق الكلام، ولم يسألني إن كنت خائفة. لكنه كان يعلم... يعلم أن قلبي يطرق أبوابًا لم أجرؤ على لمسها من قبل.

احتضنت خصره، ووجهي قرب ظهره، أستنشق رائحة لا تشبه الأرض ولا النار... بل تشبه مصيرًا قادمًا نحوي بسرعة، وأنا لا أملك إلا أن أتمسّك.

هناك، وسط الريح والركض، شعرت بالقلادة ترتجف على صدري... وتبدأ من جديد، بالاحتراق.

كان الكهف أمامنا، صامتًا... كأنه ينتظرني.

تقدّم كيران بخطى واثقة، خطواته لا تُحدث صدى، ومع ذلك شعرت أنها تطرق شيئًا عميقًا داخلي.

أما أنا...تجمّدت في مكاني. الهواء من حولي ضاق، وضربات قلبي علت كأنها تريد أن تردعني عن التقدُّم.

همستُ، بصوت مكسور بيني وبينه: "كيران... ماذا لو كنتُ حقًا هي؟"

التفت إليّ ببطء، وكأنّه شعر بكل الذعر الذي يتخبط بداخلي.

"ماذا لو كنتُ هيَ... المنقذة التي تحدّثوا عنها؟"

بلعت ريقي، وشعرت بعينيّ تلمعان دون إرادة.

"وأنا... لا أملك أدنى فكرة عن كيف أنقذ أحدًا. ماذا لو خذلتهم؟ ماذا لو خذلتك؟"

تنفّست بصعوبة، وتابعت، بصوت أقرب للبكاء:

"وماذا لو لم أكن شيئًا أصلًا؟ مجرد دخيلة على هذا العالم... فتاة تائهة، وقعت في أسطورة لا تخصّها؟"

اقترب مني كيران حتى باتت المسافة بيننا لا تُذكر. رفع يده، ووضعها على كتفي برفق. لم يقل شيئًا في البداية، فقط نظر إليّ نظرة جعلت كل الأصوات في رأسي تخرس.

"آريانا..." قالها بهدوء، كأنّه يربّت على روحي.

"الخوف لا يعني أنكِ ضعيفة، بل يعني أنكِ تدركين حجم ما يمكن أن تخسريه. وهذا وحده... يجعلكِ شيئًا نادرًا."

تنهد قليلًا، ثم أضاف بنبرة أكثر دفئًا:

"المنقذة لا تأتي من الأساطير، بل من قرارات صغيرة... من قلبٍ يؤمن رغم كل الوجع، ويقف رغم الارتباك. وإن كنتِ أنتِ... فقد أُختيرت روحك، لا معرفتك. قلبكِ، لا خبرتك."

نظرت إليه، الدموع في عيني، وقلت بصوت خافت: "لكني خائفة، كيران."

ابتسم أخيرًا، تلك الابتسامة التي لا تشبه إلا الأمان، وقال:

"إمشي معي... حتى وإن لم تكوني المنقذة، فأنتِ لستِ وحدك. وأنا أؤمن بك، أكثر مما تؤمنين أنتِ بنفسك."

مدّ يده إليّ، كمن يقدّم وعدًا لا يُنقض. وضعتُ يدي في يده... كانت دافئة، ثابتة، تحملني حين تزلّ روحي. وتقدّمنا سويًا نحو الكهف... نحو الحقيقة، أو الخرافة. نحو المصير، أو الخلاص. لكن هذه المرة... لم أكن وحدي.

دخلنا الكهف بصمت، فقط وقع أقدامنا كان يهمس بين الحجارة. كان الظلام فيه مختلفًا... ليس حالكًا تمامًا، بل يزحف على الجدران برفق، كأنما يسترق النظر إلى كل خطوة نخطوها.

رائحة رطبة، عتيقة، امتلأ بها أنفي، وأشعلت بداخلي ذكرى لا أعرف مصدرها.

تقدّم كيران أولًا، نظراته حادة، حذرة، ويده لا تفارق مقبض سيفه. أما أنا، فكنت أجرّ قدميّ بتردد. القلب في صدري لم يكن ينبض... بل كان يركض. يركض كأنما يهرب من مصيرٍ يوشك أن يُلقى فوق رأسي.

كل شيء في داخلي كان يصرخ: عودي! لكني تابعت كيران... فقط لأنني أثق به.

وفجأة...وكأن جسدي انفجر من الداخل. القلادة فوق صدري اشتعلت! أقسم أنها لم تكن مجرّد حرارة... كانت لهبًا حيًّا، يحاول الخروج من جلدي.

صرختُ بصوت لا يشبهني، وتهاويتُ على الأرض، أضغط على القلادة بيدي كأنني أستطيع كتم جمرها، لكن لا فائدة.

"آريانا!"

صوت كيران اخترق ذهني المرتبك، ركض نحوي، جثا أمامي، وعيناه فيهما ذعر لم أره من قبل.

"ابتعد... إنها تحترق!" صرختُ، ودموعي نزلت بحرارة تشبهها.

ثم، كما لو أن الظلام نفسه تنفّس، ظهر الكيان. لا شكل... لا ملامح... فقط حضور طاغٍ، يبعث القشعريرة في العظام.

وقف أمامي لحظات طويلة كالعمر، يحدّق بي – إن كان يملك عيونًا – ثم اختفى... دون كلمة، دون علامة... لا رؤيا، لا صوت.

سقط السكون علينا كالصاعقة.

حدّق كيران في الفراغ، وكنت ألهث، والدموع على وجهي تبخّرت من حرارة الصدمة.

"لماذا لم يحدث شيء هذه المرة أيضًا؟" همستُ، لكن لا جواب. فقط خيبة مرّت بيننا كريحٍ باردة.

كيران بدا حائرًا، ضائعًا، لكنه تقدّم فجأة نحو أحد الجدران... شيء هناك لفت انتباهه.

"انظري، هناك نقش غريب... لم يكن هنا من قبل."

اقترب، مدّ يده ولمس النقش وكل شيء انقلب.

اهتز الكهف من تحتنا...الأرض بدأت ترتعش، الجدران تنوح، وكأنها على وشك الانهيار. ثم فجأة، انشقت الأرض... بالضبط تحته.

"كيراااااااان!"

صرختُ، ومددت يدي قبل أن يختفي.

أمسك بيدي للحظة. تلك اللحظة فقط.

كان نظره مثبتًا في عينيّ، وعيناه مليئتان بشيء... شيء يشبه الوداع.

"آريانا...!"

ونادى باسمي، قبل أن تنفلت يده، ويسقط في الفراغ.

قفزتُ خلفه، لا أذكر أنني فكّرت، فقط فعلت.

لكن الأرض أغلقت فجأة كما انفتحت، ووجدت نفسي أضرب الحجر بقبضتي، أصرخ، أبكي، أتوسل.

"كيران!! لاااااا!!" لكن لم يرد أحد.

عاد الهدوء، قاتلًا، كأن شيئًا لم يكن. جلستُ، أنظر إلى الفراغ، يداي ترتجفان، وقلبي يكاد يذوب.

كنتُ وحدي... في كابوسٍ يُدعى الكهف.

لم يكن صوت سقوطه وحده هو الذي انكسر في أعماقي... بل شيءٌ فيّ أنا تحطّم أيضًا. رأيته يَهوي، يختفي بين أنياب الأرض، ولم أستطع أن أمدّ يدي إليه في الوقت المناسب. كنتُ هناك، أقف على طرف الفجوة، أصرخ باسمه، وكأن صوتي قد يعيده... كأن ندائي يمكنه إيقاف زلزال القدر.

"كيران!!"

لكن صدى اسمه لم يُعِده، بل ارتدّ إليّ خافتًا، حزينًا، كمرآة مكسورة تعكس صورتي منهارة.

جلست حيث اختفى، وذراعاي تلفّان جسدي، كأنني أُحاول منع ما تبقّى مني من الانهيار. لا أعرف كم مضى من الوقت، لم أعد أشعر به... ربما ساعات، وربما لحظة واحدة طويلة، ممتدة بين البكاء والصمت والحزن. كنت أستمع لصوت أنفاسي المتكسّرة، وأُقنع نفسي أن ما حدث لم يكن حقيقيًا.

لكنه كان. كيران اختفى... والكهف ابتلعه دون أن يترك لي حتى أثرًا أتشبّث به.

قمتُ... ومسحت دموعي. لا يزال في صدري قلب ينبض، وذكرى تحترق، وقلادة ساخنة تحثّني على ألا أتوقف. يجب أن أخبرهم... يجب أن يعرفوا.

خرجت من الكهف، وعيناي تبحثان عنه في كل ظل وكل نسمة ريح... لكن لا أحد. كان الحصان الأسود هناك، وكأنه كان ينتظرني. نظر إليّ بعينيه الحادّتين، تشبهان عيني كيران... وكأن بينهما رابطًا خفيًا لا أفهمه.

لم أكن أعرف الطريق... لكنه تحرّك، وكأن قلبه يعرف. وأنا تمسّكت به بصمت، والريح تعصف بشعري وتلسع وجهي... لكنني لم أعد أهاب شيئًا.

كنت أهرب من وجعي، وأركض نحوه في الوقت نفسه.

وصل أوفاليس دون أن أُدله. كان هو من دلّني، وكأن شيئًا فيه لم ينسَ صاحبه، وكأن العالم نفسه قرّر أن يساعدني هذه المرة.

***

حين وصلت إلى وسط أوفاليس، كانت الشمس قد بدأت تسطع بلون خافت فوق الساحة الحجرية، لكنّ ضوءها لم يصل إلى قلبي.

وجدت الناس مجتمعين هناك، رجالاً ونساء، وجوههم مشدوهة، والأصوات تتعالى في جلبة وقلق. لم أفهم في البداية، حتى سمعت أحدهم يصيح: "لقد عادت! إنها هي!"

شعرت بكل الأنظار تتجه نحوي، كأنها سهام من لهب، تخترقني حتى العظم. لكنني لم أتوقف. تقدّمت بخطوات ثقيلة نحو رانيل ونويس، الوجهان الوحيدان المألوفان وسط ذلك الحشد المشوّش. وحين اقتربت، شعرت بوجهي ينهار دون أن أبكي، وملامحي تفقد تماسكها أمام رانيل، التي سارعت تسألني بعينين مرتجفتين:

"أين كيران؟ أين القائد؟"

فتحت فمي، ولم تخرج الكلمات. أردت أن أصرخ، أن أبكي، لكنني لم أملك القوّة. خرج صوتي وكأنه نُحت من رماد:

"ربما... ربما مات... الأرض... ابتلعته..."

لم أكمل الجملة. فجأة، شعرت بيد قوية تمسكني من كتفي، وتشُدّني بعنف. كان نويس. عيناه تشتعلان بنيران لا أعرف إن كانت حزنًا أم غضبًا.

"ماذا فعلتِ بالقائد؟! ماذا فعلتِ بكيران؟!"

هزّني بعنف، وأنا عاجزة عن الدفاع عن نفسي. تركته يصرخ، ربما لأنني كنت أصرخ بداخلي أكثر منه. بدأت أشرح، بصوت متقطع، ما حدث... الكهف، القلادة، الكيان، العلامة، الحفرة... كيف حاولت الإمساك به... كيف صرخت حتى جفّ حلقي... كيف بقيت هناك، على الأرض، منتظرة أن يعود...

ما إن انتهيت، حتى اندفعت الشتائم نحوي كالرماح:

"كاذبة!" "لقد خدعتنا!" "إنها الهلاك الذي تنبّأ به الحكماء!" "سلبتنا كيران... سلبتنا الأمل!"

أصبحت الكلمات ضبابًا أسود يلتف حول رأسي، والوجوه لم تعد وجوهًا، بل جدرانًا تهوي فوق صدري.

لم أجب. لم أصرخ. فقط كنت أرتجف.

وهناك...وسط العاصفة، وقف نويس.

صوته دوّى: "كفى! جميعكم، كفى!"

ساد صمت ثقيل. لم يكن نويس ذلك الشاب الصلب المعتاد، بل بدا وكأنه يحمل صوت كيران نفسه في صدره.

"أتدرون ما هو أسوأ من الموت؟ أن يموت إنسانٌ كان حيًّا بينكم، ولم تروه قط."

نظر في وجوههم، واحدًا تلو الآخر، وكأن كلماته أحكام:

"كيران لم يُقتل اليوم. أنتم قتلتموه منذ زمن. حين منحتموه لقب المنفي، وتركتموه في العراء، لا وطن له، ولا ظهر يسنده.

كان يحرس أرضًا لا تسأله عن حاله، يواجه خطرًا لا يكترث لأجله أحد. يعود إلى كوخه في أطراف الغابة، لا يسمع كلمة شكر، ولا يرى وجهًا ودودًا.

وحين كانت أعينكم تغفو مطمئنّة، كان هو يقاتل في الظل، يحرس صمتكم، يحتضن خذلانكم... ولا يشتكي.

واليوم... تتباكون عليه وكأنكم فقدتم بطلاً؟ لا، أنتم فقدتم فرصتكم الأخيرة في النجاة."

ضرب على صدره:

"كيران كان وحيدًا، لكنه لم يكن حاقدًا. قال لي مرة: لا يهم إن لم يذكرني أحد، المهم أن تبقى أوفاليس بأمان."

ثم أدار وجهه عنهم، كمن انتهى من جنازة لا حضور فيها إلا الندم، وتمتم:

"أما أنا، فلا أتحدث لأجلها..." مشيرًا إليّ دون أن ينظر، "بل لأجل رفيقي... الذي لم يعُد هنا ليدافع عن نفسه."

ساد صمت مهزوم. انخفضت الرؤوس، وتراجعت الأصوات.

أما أنا...فكنت أبكي، لا فقط لأن كيران رحل، بل لأني الآن فقط رأيت عمق الجرح الذي كان يعيشه وحده. ولم أعد أعلم... أيّهم فقد كيران أكثر؟ أنا، أم هم؟

ظننت أن كل شيء قد انتهى حين صرخ نويس في وجه الناس ودافع عن كيران، حين كشف وجوههم الحقيقية وذكّرهم بخيانتهم لصاحبهم المنفي... لكن يبدو أن الصمت الذي خيّم بعد كلماته لم يكن نهاية المشهد، بل بدايته.

رفع نويس عينيه نحوي، تلك النظرة... لم تكن نظرة حزنٍ على ما جرى، بل شك... نار تتقد في داخله.

قال بصوتٍ جهوريّ، باردٍ كحدّ السكين:

"أما هذه، فهي الأخرى موضع شبهة. ظهرت من العدم، وادّعت أنها منقذة، وها هو القائد يسقط حين كان معها وحدها. أنُصدّق هذه القصة السخيفة؟ أنُصدّق

دموعها؟ لا... إنها ليست منّا، إنها دخيلة على أوفاليس وكاثرينا، لا نعرف أصلها ولا نواياها."

تراجعتُ خطوة إلى الوراء... لم أكن مستعدّة لهذا. قلبي كان مشغولًا بكيران، وها أنا أجد نفسي فجأة متّهمة.

"أنا لم أقتله! أقسم... لم أكن أريد..."

لكن صوتي بدا واهنًا، تافهًا وسط هدير الأصوات.

"التحقيق وحده من سيُثبت ذلك،" تابع نويس بصرامة، "ستُعتقل حتى نعرف من أرسلها، ولماذا جاءت في هذا الوقت بالذات، وما علاقتها بما يحدث في أوفاليس."

صرخات التأييد تتابعت:

"اسجنوها!" "نحن لا نثق بها!" "قتلت القائد!"

رأيت كل شيء يتداعى حولي، حتى الأرض بدت وكأنها تهتز مجددًا...لكن لا حفرة هذه المرة، فقط أعين تهاجمني، وكلمات كالسهام تُغرس في صدري.

التفتُّ إلى رانيل... لم تتكلم، لم تدافع عني، لكن نظرتها كانت مختلفة. لم تكن مقتنعة. رأيت في عينيها تردّدًا، صراعًا... ربما حتى رحمة.

لكن الرحمة لا تكفي أحيانًا.

قُدتُ مكبّلةً بالنظرات، لا بالقيود، إلى مكان لا أعرفه... بقلبي الذي كاد يتوقّف، وبصورة كيران تسقط أمامي من جديد.

(٣)

منذ أن أُغلق باب الساحة خلفي، شعرتُ أن العالم بأسره لفظني. ساقني الحارسان بصمتٍ مشؤوم، لا صوت سوى وقع أقدامنا على الحجارة القديمة.

الطريق إلى سجن أوفاليس لم يكن عادياً، بل كأنه ممر بين عالمين... عالم الأحياء، وعالم آخر لا أستطيع تسميته.

سجن أوفاليس... ليس كأي سجن. كان أشبه بكائن حجري ضخم يبتلع الداخلين إليه، ثم يغلق فمه خلفهم إلى الأبد. الجدران نُحتت بعناية، لكنها لم تكن صمّاء؛ كانت تنبض، أو هكذا شعرت... كأنها تتنفس ببطء، وتُراقب، وتحفظ الأسرار.

الرطوبة تملأ المكان، لكنها ليست رطوبة ماء، بل رطوبة قديمة، كأن الجدران احتفظت بكل نَفَس أُخذ هنا، بكل تنهيدة بكاء، بكل سرّ صُرخ بصوتٍ منخفض.

أما الرائحة... فكانت أغرب من أن تُوصف: مزيج من تراب رطب، وعطر خشب متعفّن، ودخان بخور منسيّ.

أقسم أني شعرتُ في لحظة وكأن رائحة الخوف نفسها كانت تطفو في الهواء؛ ثقيلة، خانقة، تختلط بأنفاسي.

الممرات ضيّقة لكنها طويلة، أشبه بشرايين داخل جسد ضخم. الأضواء الخافتة على الجدران تتراقص ببطء، لا تُنير بل تهمس... وكأنها تُنذر، أو تحكي قصة من سبقوني إلى هنا.

خطوتي الأولى داخل الزنزانة كانت كخطوة في قاع بئر. الهواء أكثر برودة، والجدران أقرب مما تبدو، كأنها تنوي أن تضمّني حتى أختنق. لا نافذة، لا صدى، فقط صمت يحمل صدى أرواح ما زالت معلّقة في الهواء.

جلست في الزاوية، على السرير الحجري الذي لا يرحّب، يعلوه غطاء كأنّه حاكته يد الموت؛ خشن، بلا لون، بلا دفء. احتضنت ركبتيّ، وشعرت بثقلي يزداد... ثقل التهمة، ثقل الغدر، ثقل الموت الذي شهده قلبي ولم يقدر أن يمنعه.

عقلي لم يصمت... أسئلة تنهال كالسياط: هل أنا أداة استُخدمت لتدمير أوفاليس؟ هل أنا المسؤولة؟ لم أعد أعرف من أنا.

أنا المنقذة؟ أم الهلاك الذي ابتلع أمل أوفاليس؟ لكن وسط الظلام، وسط البرودة والرائحة الثقيلة، وبين هذه الجدران التي تهمس بما لا أفهمه... كان هناك صوت صغير بداخلي... خافت لكنه صادق، يخبرني أن هذه ليست نهايتي... بل بدايتي.

كنتُ مستلقية بصمت، ظهري إلى الجدار، رأسي مثقل بالأسى. لم أعد أبكي؛ حتى الدموع أصبحت ترفاً لا طاقة لي به. فقط الصمت... وصدى الاتهامات يرنّ في أذني: "خائنة... دخيلة... قاتلة."

وفجأة، تنفّست الجدران شيئًا غير مألوف. خطوات لم أسمع مثلها من قبل؛ ناعمة، حذِرة، كأن الهواء هو من يحملها. رفعتُ رأسي ببطء... وهناك، خلف قضبان الزنزانة، وقفت فتاة بملامح هادئة، بعينين غريبتين، ووجهٍ مطمئن يشع نورًا خفيفًا رغم الظلمة.

"رانيل...كيف دخلت؟! كيف تخطّت الحراس؟! كيف لم تُصدر صوتًا واحدًا؟ كأن الجدران نفسها سمحت بعبورها. "

همست، بصوت كأن الريح تنطقه:

"لا تحاولي الفهم... لم أُرَ. أنا لا أُرى حين لا أريد أن أُرى. كل شيء في هذا السجن يهمس لي، يخبرني أين يقف الحارس، متى يلتفت، وأين تُخفى المفاتيح."

تقدّمت نحوي وأخرجت مفتاحًا صغيرًا من سوار جلد ملفوف حول معصمها.

"عينيّ لا ترى جدرانهم، لكنها ترى نواياهم، مشاعرهم، أكاذيبهم... وصدقك."

سكتت لحظة، ثم أضافت بنبرة فيها حنان ووضوح:

"أنتِ لم تقتلي كيران. أعلم ذلك. لأنه حين تحدثتِ عنه، لم أسمع الكذب. الكذب عندي لا يُخفى... له صفير حاد... له نَفَس حارق. أما حديثكِ... فكان صامتًا، رطبًا، صادقًا... كنسمة خفيفة في قلب غابة خائفة."

فتحت باب الزنزانة برشاقة، وكأنها كانت تعرف قفله منذ الأزل. مدّت يدها لي وقالت:

"كيران وثق بكِ... وأنا أثق بعينيّ المغلقتين، أكثر من أعينهم المفتوحة."

سرت خلفها. كل زاوية عرفتها، كل جدار تحسسته كأنه نبض حيّ يخبرها أين تخطو ومتى تتوقف. كانت تتنفس السجن...كأنها نشأت بين جدرانه. خرجنا من ممرّ سرّي خلف حجرة خالية.

توقفنا أمام بوابة حديدية صغيرة، بدت كأنها لم تُفتح منذ قرون.

"من هنا... الطريق إلى الغابة المحرّمة. لن يلاحقكِ أحد. لا أحد يعرف هذا الطريق، ولا أحد يجرؤ على الدخول إليها... إلا نحن الثلاثة."

سألتها، وأنا أرتجف: "لماذا تساعدينني؟"

اقتربت مني، وضعت يدها على صدري، فوق قلبي مباشرة، وقالت:

"لأني سمعتُ نبضكِ... لا يطرق بابًا مظلمًا. بل يبحث عن نور."

"أنا فتاة عمياء، لكني لا أحتاج إلى العين كي أرى الحقيقة. وقد رأيتك، آريانا. رأيتك حين لم يركِ أحد."

ثم ابتسمت، استدارت، وغابت في العتمة... وتركتني واقفة أمام الطريق المؤدي إلى الغابة، حرّة... لكن مثقلة بالأسئلة، بالخوف، وبالأمل.

***

ركضت... ولم أعد أعرف ممّ أهرب بالضبط. ركضت بكل ما بقي فيّ من قوّة... كنت أسمع دقّات قلبي تصرخ في صدري، أنفاسي المتقطعة تصارع البرد، وظلال الأشجار تتمايل حولي كأنها تلاحقني.

الظلام كان كثيفًا... كثيفًا جدًا. لم أرَ سوى سواد يتنفس في وجهي، كأنه يحاول ابتلاعي.

كنت خائفة... نعم، خائفة من أن يمسكوا بي، يعيدوني، يحكموا عليّ بشيء لم أفعله. لكن خوفي لم يكن فقط من الناس... كنت خائفة من الغابة نفسها، من همساتها، من صمتها الثقيل. خائفة من أن أبقى هنا للأبد، في هذا العالم الذي لم أنتمِ إليه يومًا، لكني... تعلّقت به.

ركضتُ والدموع تحرق وجهي. ركضتُ وكأن كل خطوة كانت محاولة للهرب من الألم الذي ينهشني من الداخل.

كيران... كأن اسمه وحده يكسر شيئًا في داخلي. لم يكن فقط الحارس الصارم الذي رافقني؛ كان الجدار الذي احتميتُ خلفه في عالم لا أعرفه. كان الغريب الذي فهمني قبل أن أفهم نفسي. رغم قسوته، كان يحميني. رغم صمته، كان يسمعني. رغم نظراته الباردة، كنت أشعر بها تشتعل عندما يتعلّق الأمر بي.

والآن اختفى لا وداع لا لحظة أخيرة لا تفسير. مات وهو يظنّ بي خيرًا. مات دون أن يعلم الحقيقة كاملة. مات من أجلي. وكأن موته بصمة أبدية على قلبي، لن تُمحى أبدًا.

لم أعرف كم ركضت، ولا إلى أين... لكني كنت أسمع شيئًا ما بداخلي يهمس:

"اركضي... لا تتوقفي... لا تدعي موته يذهب هباءً."

وفي كل لحظة كنت أبتعد فيها عن السجن، كنت أقترب من الحزن أكثر. كنتُ أشعر أني أترك جزءًا من قلبي هناك، خلفي، مع كيران، ومع كل أولئك الذين ظنّوا أني سبب المصيبة.

لكني لم أعد أملك شيئًا... لا دليل، لا ملجأ، لا شخص يصدقني... إلا رانيل.

تذكّرتُ وجهها الهادئ، وعينيها الباردتين الثابتتين... تلك العمياء التي رأتني، ورأت ما عجز عنه المبصرون. لولاها، لما كنت الآن أركض.

***

لم تكن السماء فقط التي أظلمت، بل حتى الهواء من حولي صار كثيفًا خانقًا، كأنني أتنفس من خلال جدار. الغابة لم تعد فقط مكانًا، بل صارت شيئًا آخر؛ شيئًا له قلب ينبض وأنفاس تصعد من أعماق الأرض، نبضها تحت قدمي يهمس لي دون صوت. الأشجار بدت أطول، وأغصانها كالأصابع تنحني لتلامس كتفي، كأنها تحاول منعي من التقدم. اختفى الضوء بالكامل، لا قمر ولا نجوم، فقط عتمة مكتظة بأشياء لا تُرى، وروائح الغابة غريبة مزيجًا من أوراق محترقة، دم دافئ، وبخور قديم كأن أحدهم أقام طقسًا منذ قرون وما زالت بقاياه معلّقة في الهواء.

ثم جاء الصوت، همسة اخترقت صدري كأنها تنبع من دمي ذاته؛ نفس الصوت الذي سمعته أول مرة حين ظهرت في الغابة، صوت يهمس باسمي: "آريانا..." تجمدت قدماي، كان أبطأ من أول مرة وأعمق، كأنه يتردد بين جذوع الأشجار ويرتد من العظام: "القلادة اختارتك..." ارتجفت، وظننت للحظة أن الغابة

بأكملها تردد الجملة وكأنها تقرأ قدري بصوت واحد. كل شيء من حولي كان يهمس، يزحف ويقترب، شعرت بظلال تمشي خلفي وأخرى تسبقني وبعضها يمر من خلالي. الغابة لم تكن موحشة فقط، بل كانت واعية، كل شجيرة بدت وكأنها تحمل عيونًا، وكل نسمة ريح تسرق اسمي مني، ومع ذلك تابعت السير.

فجأة تغير كل شيء حولي، كأن الغابة ابتلعت أنفاسها وساد سكون ثقيل خنق الهواء، والظلال انسحبت كما لو أنها تهرب من شيء قادم لا يرحم. ثم أدركت حضوره؛ كان واقفًا هناك منذ زمن لا أعلمه، كأنه خرج من رحم العدم، جسده بلا ملامح أو عيون لكنه يراني ويحاصرني بنظرات لا تخرج من عين بل من كيان يعرفني ويحفظني. قال بنفس النغمة الغريبة: "القلادة اختارتك يا آريانا، والآن حان دورك لتختاري."

صمته بعدها كان كصوت صاعقة حُبست في جوفي، حاولت النطق فلم يخرج إلا همس متردد: "أختار؟ ماذا أختار؟ أنت تطلب مني قرارًا لا أملك أدواته! أأنقذ أطفالًا لا أعرف كيف أساعدهم؟ أأبقى هنا في أرض لا أفهمها ولا تنتمي إلي؟ أم أهرب وأحمل ذنبهم معي إلى عالمي؟"

لم يجب، فقط صمت.

"هل يمكنني العودة لاحقًا إن بقيت؟ هل هناك من سينقذهم إن اخترت الرحيل؟ هل سأفشل إن بقيت؟ أم سأنساهم إن ذهبت؟"

لكن لا إجابة. خطا خطوة للخلف ثم أخرى، بدأ يبهت كأن الهواء يبتلعه ببطء أو كأن الغابة تنغلق عليه.

صرخت "انتظر! أجبني فقط!" لكنه اختفى كأن شيئًا لم يكن، وتركني واقفة في العتمة، قلادة تتدلّى من عنقي وسؤال يتدلّى من قلبي.

سقطت على الأرض كما يسقط الغصن المكسور، لم أعد أقوى على الوقوف، شيء ما في داخلي انهار دفعة واحدة وكأن ثقلًا لا يُرى انقضّ على جسدي وأغرقه في الحطام. أعصابي كانت تشتعل وتنفجر كشرارات كهرباء داخل رأسي، شعرت بجمجمتي تضيق تكاد تغلق على عقلي كالكماشة، أنفاسي خرجت متقطعة لا هواء يكفي ولا صدر يتسع، وكل خلية في جسدي تصرخ طالبة النجاة. كنت أظن رأسي سينفجر حرفيًا كأن أحدهم يطرق عليه من الداخل بمطرقة باردة بلا رحمة.

ثم حدث شيء غريب؛ من أطراف أصابعي بدأت برودة بطيئة تزحف نحوي، لم تكن برودة عادية بل أشبه بسائل شفاف هادئ ينساب في دمي ويطفئ النيران واحدًا تلو الآخر. شعرت بها تلامس جلدي أولًا، ثم عضلاتي، ثم تصل إلى عظامي،

ومع كل شبر تغزوه تلك البرودة، كان الألم ينسحب لا يهرب بل يُسحب ويُمحى ويتبخر. نبضي بدأ يهدأ، ارتجافات صدري تباطأت، وصوت أنفاسي الذي كان يعلو في أذنيّ أصبح هامسًا ثم صامتًا.

بدأ الإدراك يخبو، كضوء شمعة في غرفة مغلقة، الألوان من حولي بهتت، الأصوات اختفت، وثِقَل رأسي صار أخف من الهواء. لم أعد أقاتل، استسلمت، لم يكن نومًا بل سقوطًا ناعمًا في ظلمة دافئة، هدوءٌ لم أختره لكنه لم يُرعبني، ابتلعتني العتمة كأنها أم تحتويني.

لم أفتح عيني فجأة، بل كان الأمر أشبه بخروج بطيء من أعماق الغياب، كأن شيئًا ما يسحبني بهدوء من مكان سحيق، من ظلمة ناعمة بلا صوت أو شعور، ثم شيئًا فشيئًا بدأ نور غريب يتسلل إلى جفني، فنور أقوى حتى اضطررت لفتح عيني.

لكن ما رأيته لم يكن العالم، كنت ممددة على أرض ناعمة باردة كأنها مصقولة من الثلج لكنها ليست جليدًا بل رخام ناصع البياض، لامع وناعم يشبه صفحة ماء ساكنة. رفعت رأسي ببطء وتلفت حولي، غرفة لكنها ليست كباقي الغرف، جدرانها كلها من المرايا ضخمة وطويلة تمتد من الأرض إلى السقف، كل جدار يعكسني ويعيدني وينسخني في عشرات الصور حتى لم أعد أعرف أيها أنا. كانت المرآة أمامي

تعكس المرآة خلفي التي تعكس المرآة الجانبية حتى بدا لي كأنني عالقة في متاهة لا نهائية من الانعكاسات.

الضوء كان يشبه ضوء الصباح لكن بلا شمس، مضيء ودافئ لكن بلا مصدر، كأنه ينبعث من الجدران ذاتها أو من شيء لا يُرى. أحسست بشيء غريب في صدري، ليس خوفًا ولا راحة بل كأنني محطمة ومطمئنة في آن واحد. همست: "هل أنا في حلم؟ أم أن هذا مكان بين الحياة والموت؟"

لم يجبني أحد، حتى صوتي بدا باهتًا كأنه ذاب في الهواء قبل أن يصل إلى المرايا. ثم بدأت المرايا تنطفئ واحدة تلو الأخرى بهدوء كما تنطفئ الشموع في الريح، إلا واحدة، مرآة أمامي مباشرة أضاءت فجأة لكنها لم تعكسني، عرضت صورة كأنها شاشة من زجاج.

ورأيت كيران، كان يسقط في تلك الحفرة الملعونة التي ابتلعته أمامي، سقط وحده وذراعه ممدودة نحوي كأنه أراد أن يتمسك بشيء، بأي شيء لكن لا شيء أنقذه. كنت أصرخ لكني لم أسمع صوتي، جسده كان يختفي، ثم غيمت الصورة وانطفأت المرآة.

اشتعلت مرآة أخرى، أطفال أوفاليس وضحكاتهم وألعابهم ورسمهم بالطباشير على الأرض، ثم فجأة توقف واحد منهم ثم الآخر، فتاة صغيرة تحمل زهرة تقع منها، ونبضهم يتلاشى وعيونهم تغلق وهم يبردون ببطء كأن الحياة تُسحب منهم قطرة قطرة. صوت بكاء بعيد لا أعرف مصدره ربما مني، انطفأت تلك المرآة وجاءت الثالثة.

نور أوفاليس، تلك الشجرة المهيبة التي تُضيء العالم وتحميه من الانطفاء، رأيتها وهي تهتز، أوراقها تتساقط، غصونها تذبل، حتى نواتها. النور بدأ يخفت. بقيت أتابعها وهي تموت، وفي كل لحظة تُطفئ فيها كان عالم أوفاليس يبهت، بيوت تختفي، شوارع تنمحي، حتى وجوه الناس أصبحت بلا ملامح ثم لم يبق منهم أحد. أوفاليس كأنها لم تكن يومًا، وكأن كل ما حدث كان حلمًا لشخص لم يعد موجودًا.

ثم المرآة الأخيرة، في لحظة واحدة انهالت الصور، أمي، وجهها المنهك، نظرتها التي تبحث عني في الفراغ، يدها تلمس سريري الخالي، غرفتي، دفتري المفتوح، صورتي الصغيرة في برواز على الطاولة، أغنيتي المفضلة تعزف وحدها من مذياع مهترئ، شارع حينا، الحديقة التي وعدت أمي أن أزرع فيها وردة، الوطن ذلك الوطن الذي كنت أهرب منه في أحلامي فإذا بي الآن أشتاقه حد البكاء.

كل مشهد كان ينغرس في صدري كإبرة، لكنها لم تكن تؤلمني، بل تذكرني، تذكرني من أنا وأين أنتمي ومن أجل ماذا كنت أحارب. رأيت نفسي محاصرة بين عالمين، عالم مات فيه كيران وعالم ينتظرني لأعود. أحدهما يحتاجني والآخر يحبني، لكن لا أحد يستطيع أن يقرر مكاني سوى أنا.

ثم انطفأت كل المرايا وبقيت وحدي في الصمت وفي سؤال لم أعد أملك له إجابة. كنت بالكاد أتنفس، لكن شيئًا في صدري ظل يشتعل، نقطة حرارة ثابتة ساكنة تتمدد داخلي ببطء يشبه الزحف. القلادة أحسست بها تنبض كأن فيها قلبًا لا يُرى، ثم بدأت تتوهج، ضوءها لم يكن نارًا هذه المرة بل هالة هادئة تُضيء دون لهب، تدفئ دون أن تحرق، تنادي دون أن تصرخ.

وفجأة، سمعت صوت امرأة، ليست أي امرأة، بل صوتًا بدا وكأنه خرج من شق الزمن ومن مكان أبعد من الغابة وأقدم من أوفاليس نفسها، فيه عمق امرأة عاشت ألف حياة ومرارة من عرفت جميع النهايات. قالت ببطء وبحزن: "آن أوان الاختيار يا أريانا."

لم يكن صوتها قاسيًا لكنه لم يكن رحيمًا أيضًا، وأضافت: "هناك مفترق أمامك الآن، أحد الطريقين يُفضي إلى وطنك، إلى غرفتك الصغيرة التي كنت تستيقظين فيها على صوت أمك وهي تُحضّر الفطور، إلى شوارع تعرفينها وهواء يعرفك. أما

الطريق الآخر فهو أرض لا تعرف اليقين ولا تعدك بشيء سوى أنك إن اخترته لن تعودي أبدًا."

ثم سكتت، وللوهلة حسبت أنها انتهت، لكن صوتها عاد أبطأ وأعمق: "إن قررت البقاء، فاعلمي أنك باقية من أجل شعب لا يعرفك، من أجل أطفال تموت ضحكاتهم قبل أعمارهم، من أجل وطن لا يملك وقتًا ليؤمن بك، ومن أجل شجرة نور توشك أن تنطفئ إلى الأبد. أنت لا تملكين قوة ولا معرفة ولا خريطة تقودك، وحتى لو امتلكت كل هذا فقد لا يكفي، لكنك وحدك من رأى الحقيقة ووحدك من سُمِح له أن يختار."

توقفت، ثم همست كأنها تقترب مني من داخل نفسي: "لن يجبرك أحد يا أريانا، هذا الحمل ثقيل ولا يُفرض على أحد. لكن تذكري: العودة تعني أنك ستعيشين، لكن شيئًا فيك سيموت، والبقاء يعني أنك قد تموتين، لكن شيئًا فيهم قد يعيش."

كنت صامتة، والهواء في الغرفة تغير كأنه ينتظر، كأن العالم نفسه يحبس أنفاسه بانتظار ردي. شيء في داخلي تشقق، حياتي كلها مرت في خاطري، ضحكة أمي، ضوء غرفتي، نافذتي الصغيرة التي أراقب منها المطر، الدفء، اليقين، الحياة، ثم وجوه الأطفال، كيران وهو يسقط، الشجرة التي تنطفئ.

جلست على الأرض كأنني لم أعد أحتمل الوقوف، وضعت يدي على القلادة فكانت دافئة. بكيت، لا صراخ ولا نحيب، دموع نازلة بصمت مثل المطر يهمس على النوافذ في ليالي الوحدة، ثم همست: "أنا آسفة..."

لا أعلم لمن قلتها، لكيران، لأوفاليس أم لنفسي؟

بعد لحظات انشق الحائط من الجهة الأخرى، فتحة صغيرة ينبعث منها نور لا يشبه نور أوفاليس ولا ضوء المرايا، بل ضوء أعرفه، ضوء الأرض الأولى. خرجت منه رائحة ياسمين لم أشمها منذ زمن لكنها رائحة البيت.

رفعت رأسي، القلادة كانت ساكنة، الغرفة صامتة، ومع كل هذا السكون كنت أعلم... أنا اخترت. لم أقل شيئًا، فقط قمت ثم خطوت، واختفى الضوء الأزرق من الغرفة.

(٤)

كان كل شيء يحدث بسرعة مرعبة. الصخور تتهاوى تحت قدميّ، والهواء يُنتزع من صدري كأنني أغرق في فراغ مطلق، والصوت الوحيد الذي اخترق هذا الضجيج... كان صوتها.

"كـيـران!" نداؤها تفتّت بين جدران الكهف ثم تبخّر.

لكنني لم أرتطم بالأرض.

كان من المفترض أن أتحطم فوق صخرة، أو أتلاشى في قاع العتمة، لكن شيئًا غير متوقع حدث... الجاذبية نفسها تلاشت. كأن الهواء أعاد ترتيب نفسه ليحتويني، ليمنحني لحظة نجاة غير مفسَّرة. شعرت بلمسة واهية، حريرية، تلفّني وسط السقوط.

أغمضت عينيّ. ظننتها لحظتي الأخيرة؛ نهاية خاطفة، موتًا سريعًا، أو صمتًا أبديًا... لكنه لم يأتِ. وحين فتحت عينيّ، وجدت نفسي أهبط ببطء داخل نفق عميق محفور في الصخر، جدرانه منحوته بعناية بالغة، بدقّة لا تشبه عبث الطبيعة... بل تخطيط عقل أراد أن يُخفي شيئًا.

كان النفق دافئًا، والضوء المنبعث منه بلون العنبر، ينبض من الجدران وكأن الصخور نفسها تنفست حياة.

هبطت على سطح من الرخام الأسود، ناعم حد البرودة، دون أن أُصاب... لا كسر، لا خدش، فقط قلبي يقرع أضلاعي بذعر مكتوم.

نظرت حولي. ما هذا المكان؟

لم يكن كهفًا، بل قاعة واسعة، دائرية تمامًا، سقفها يمتد إلى ارتفاع يتلاشى في الظلام. لكن شكلها... شكلها أيقظ شيئًا في ذاكرتي.

أقواس حجرية ضخمة تتعانق على الجدران، ومن كل جدار تتدلّى بلّورات كريستالية، معلّقة في الفراغ دون خيط أو سند، تدور ببطء كما لو أنها تتنفس.

وقفت هناك، وحيدًا... لكن ذهني لم يكن ساكنًا. الخوف لم يجد له موطنًا، لم يكن له مكان.

كنت أعلم أن كل ثانية في هذا المكان قد تكون فاصلة... إما بين الانكشاف أو الفقدان. هذا لا يشبه الصدفة. هناك شيء، شيء يطلب مني أن أفهم... أن أكتشف... أن أنتصر.

ورغم اندفاع الإصرار بداخلي، كان هناك خيط رفيع من الشك يلتفّ حول قلبي، لا ليخنقه، بل ليحذّره. هل هذا هو الجواب الذي أبحث عنه؟ وهل سأخرج؟ لا... هذه ليست نهاية الطريق. هذه بداية معركة أخرى، معركة لا يُدركها أحد سواي.

جلست فوق الرخام الأسود، أراقب الصمت، أستمع إلى ارتداد أنفاسي في الفراغ. ثم نظرت حولي من جديد.

الغرفة دائرية. الجدران ملساء، محفورة بإتقان استثنائي. وسقفها؟ نعم... سقفها يشبه ذلك الذي لطالما تأمّلته وأنا طفل؛ سقف البرج الذي ينتصب في قلب ساحة أوفاليس كشيخٍ هرم تخلّى عنه الزمن.

كنت أعرف هذا البرج... وكنت أعلم أن أحدًا لم يجرؤ يومًا على دخوله.

فكيف؟ كيف أكون هنا؟

لقد سقطت في كهف بعيد، بعيد جدًا عن المدينة. حينها، بدأت الخيوط تتشابك في ذهني.

الطريق الذي سلكته لم يكن عشوائيًا. ذلك النفق... لم يكن من صنع الطبيعة. الجدران المنحوتة، الدقة، النظام... هذا صُنع يد. يد خبّأت سرًّا، دفنت شيئًا. هذا نُفّذ عن قصد. سقوطي لم يكن حادثًا... بل جزء من تصميم.

نظرت إلى الأرض تحت قدميّ. نفس الرخام الأسود الذي كان يغلف أدراج البرج القديمة. نفس اللمعان. نفس النمط. والدفء الخفيف، الضوء الكهرماني... تمامًا كما ورد في كتب المعمار القديمة التي وجدتها في تلك المكتبة المنسية.

أنا في قاع البرج.

المكان الذي لم يُذكر في خريطة، ولا في سجل، ولا حتى في همس العارفين. كأن أحدهم محا وجوده عمدًا. والآن... أنا فيه.

لم أكن أعلم أن الخوف يمكن أن يُربك أنفاسي بهذا الشكل.

***

عندما دفعت باب الحجرة السفلية في قاع البرج القديم، لم أسمع سوى صوت المفاصل الصدئة تصرخ تحت ثقله، وكأنها لم تُفتح منذ قرون.

الرائحة؟ مزيج غبار وأحبار فاسدة وشيء آخر... شيء شبيه بالحقيقة الميتة.

دخلت. هناك، تحت المدينة، كانت الحقيقة تنتظرني.

كانت الغرفة دائرية، محفورة في الصخر، يتدلّى من سقفها قنديل واحد... نصف مشتعل، نصف ميت. وعلى الجدران، لا رموز، بل نقوش مُشوَّهة، كأن أحدهم حاول محوها بسرعة.

في الزاوية اليسرى، رأيت ما يشبه مكتبة صغيرة. رفوف مكسورة، أوراق متراكمة، لفائف مطوية، صناديق من خشب داكن.

اقتربت... قلبي يدقُّ كما لم يفعل من قبل. وضعت يدي على الورقة الأولى... جفنيّ يرتعشان، ويدايا ترتجفان... شيء داخلي قال لي:

"ما ستقرأه هنا... لن يسمح لك أن تعود كما كنت."

قضيت سبع ليالٍ في قاع البرج الحجري، حيث الغبار أقدم من الذاكرة، وحيث الكلمات المدفونة تحت الحجارة كانت تنتظر من يُنصت، لا من يقرأ.

لم يكن في الغرفة إلا رفوفٌ متهالكة، أوراق ممزقة، وأدراج عميقة تخفي ما بقي من أصوات الأسلاف.

لم أنم إلا قليلاً، ولم أرغب في النوم.

كنت أتناول فتاتًا مما تبقى في حقيبتي، وأشرب من قربة ماءٍ دفئت من وطأة السكون، لكنني لم أشعر بالجوع.

كنت منشغلاً... بأنياب الماضي التي بدأت تُخرج رؤوسها من بين السطور.

في البداية، بدت الكتابات مبعثرة: مراسلات، سجلات مجالس، قصاصات من خطب، ونصوص دينية قديمة عن "نور الشجرة الكبرى"، و"عهد البقاء"، وأسماء لمدن منسية...

لكن شيئًا ما بدأ يظهر... ببطء... كما تفعل الحقيقة حين تخرج من قبرها. بدأت أربط الأحداث. كنت أقرأ، وأدوّن، وأقارن.

وكل يوم كنت أكتشف فجوة... وكل فجوة تقودني إلى نَسَقٍ مفقود، إلى جملة ناقصة، أو إلى اسم مذكور مرة واحدة ثم يُمحى من كل شيء.

ثم بدأت القصة تتضح. كأنها تنهض من بين الرماد.

كانت مدينة أوفاليس، منذ الأزل، واحدة من مدن أرض كاثرينا، تحيا بنور شجرتها، كما تفعل كل مدينة أخرى.

لكن الشجرة الكبرى، التي كانت في قلب أوفاليس، كانت مميزة... كانت أقرب إلى "نبض أرض كاثرينا" كلّها، تتصل بالحاكمة مباشرة، وتنقل من خلالها الحياة لكل الفروع.

ثم حدثت الشرارة.

ظهر قادة طامعون من داخل أوفاليس... ليسوا غرباء، بل أبناء المكان. كانوا يظنون أن الشجرة العظمى تجعلهم أحق بالحكم، وأنهم المركز الطبيعي لكل شيء. فأرادوا ما هو أكثر من مدينتهم. أرادوا أن يُخضعوا كل أرض كاثرينا لحكمهم. خططوا، واستدرجوا، ونفذوا.

نصوص قديمة ومشوّهة تتحدث عن موت الحاكمة في ظروف غامضة... لكن بعض الشهادات المخفية، المكتوبة بشفرات بين السطور، تقول إن الحاكمة لم تمت "بحادث مفاجئ"، بل كانت ضحية مؤامرة سياسية، تم اغتيالها أثناء محفل سنوي طقسي... في اللحظة التي كانت فيها روحها على اتصال بالشجرة. وما إن حدث ذلك... حتى بدأت الأرض تذبل.

كتب أحد الكتبة المجهولين:

"منذ أن صمتت الشجرة، صمتت أصواتنا. مياهنا أصبحت كالحبر، والأوراق شاحبة، حتى الأطفال وُلدوا دون ملامح شوق للحياة. عرفنا أننا قتلنا شيئًا أكبر من الحاكمة."

الخوف دبّ في قلوبهم... وأرادوا التكفير، أو بالأحرى، أرادوا إخفاء آثار الجريمة.

وهنا... بدأت صفحة أخرى.

في السجلات السفلية، وُجد ذكرٌ لطقس غريب، سُمي بـ"التقرُّب"، لم يكن يُمارَس في ثقافة كاثرينا أصلاً. بل استُقدم من "ما وراء الوادي الأحمر"، من أرض غريبة لا تُذكر في خرائطهم. وورد ذكر كيان لم يُسمَّ باسمه، بل كانوا يشيرون إليه بعبارة: "ذاك الذي يردّ النبض، ويأخذ المقابل في الوقت الذي يشاء."

هؤلاء القادة... دعوه، فاوضوه. قدّموا له شيئًا... لا أزال أجهل كنهه. لكن مقابل ذلك، عادت الشجرة تتوهج.

ومعها، خُدِع الناس. ظنّوا أن النور قد عاد، لكنهم لم يعلموا أن ما عاد لم يكن نورًا... بل احتضارًا متوهجًا.

ولم تكن هناك شروط واضحة في العهد... لكن النصوص تُظهر أنهم لم ينتبهوا لتلك الجملة التي تكررت في كتاباتهم القديمة:

"ما يُرَدُّ اليوم، لا يُدرك أثره إلا من يُولد بعد الغد."

كانوا يظنون أنها مجرد تعبير شعري. لكن بعد سنوات... بدأت الأشجار في المدن الأخرى تموت واحدة تلو الأخرى. ولم تعد الحياة تتجدد فيها كما كانت. ظنّوا أن السبب هو انفصال شجرة أوفاليس عن بقية الأشجار.

لكن الحقيقة؟

أن شجرة أوفاليس أصبحت مجرد قناة لسحب الطاقة، لصالح كيان يتغذى ببطء، دون أن يثير الشك.

سكتُّ طويلًا، وأنا أقرأ السطور الأخيرة في دفتر مهترئ، كتبه أحد القادة بعد أن تقدّم في السن، وربما ضميره لم يحتمل.

"كنا نظن أننا أنقذنا المدينة، لكننا سلمناها من الحياة إلى الجوع. الكيان لم يطلب روحًا واحدة، بل طلب جذورنا كلّها. وما عادته الشجرة إلا صورة. والصورة... تذبل أولاً."

حين أغلقت الكتاب، لم أكن نفس الشخص الذي دخل الغرفة قبل أسبوع.

الهواء الذي أتنفسه لم يعد هواءً... كأن الحقيقة صنعت في صدري فراغًا. لكنني الآن أعلم. وأقسم أنني لن أسمح بأن تتكرر الخطيئة.

***

كنتُ واقفًا في ظلمة قاع البرج القديم، والبرد يخترق جلدي وكأنه يذكّرني بجمود الحقيقة التي اكتشفتها. في قلبي غصّة لا تهدأ، وخيبة أمل تعصف بي، كما لو أنني أكتشف أن جذور حياتي مسمومة منذ زمن بعيد. الحقيقة التي عثرتُ عليها ليست سرًّا عابرًا، بل خطيئة مميتة دفنها أولئك الذين سبقونا، الذين سكنوا هذا العالم قبل أن نمضي في دربنا.

كيف لهم أن يختاروا الصمت؟ كيف سمحوا لأنفسهم بأن يدفنوا ذنبهم في هذا القاع المظلم، بعيدًا عن أنظارنا؟ والآن، أوفاليس وكاثرينا، كلّها تدفع الثمن؛ يدفعونه غاليًا مقابل صمتهم الخانق. شعرتُ بثقل لا يُطاق في صدري، كأن روحي تنكسر ببطء، ويداي تشدّان قبضتي بقوة، تحاولان كبح ثورة الغضب والخذلان التي تكاد تنفجر بداخلي.

الصمت هنا ليس مجرد غياب للكلام، بل جرح عميق، خيانة عبر الزمن. لم أعد أحتمل هذا العبء، لم يعد بإمكاني البقاء كمن شاهد ظلمًا عظيمًا ولم يُحرّك ساكنًا.

الحقيقة تستصرخني، تناديني لأخرجها إلى النور، لأخبر بها نويس ورانيل، عما وصلنا إليه، وما يهدد مستقبلنا.

لكن الخروج من قاع البرج ليس بالأمر الهيّن. كل خطوة أخطوها وسط هذا السكون كأنها معركة ضد الظلال، وضد تاريخ مسموم. عيوني تقلب كل زاوية، تبحث عن مخرج، عن بصيص أمل. لا خيار أمامي سوى الهروب... الهروب لأواجه الحقيقة، لأحاربها، لأعيد لأوفاليس ضوءها قبل فوات الأوان.

شدّدت قبضتي أكثر، وابتلعت غصّة كبيرة، ثم تحرّكت، مدركًا أنني لا أستطيع الهروب من واجبي، ولا من ذاتي. أوفاليس تنتظرني، وكاثرينا تنتظر الحقيقة، وأنا لن أخذلهم.

لم يكن قاع البرج مجرد غرفة مهجورة تبتلع النور والهواء، بل كان تحفة من التخطيط الذكي، لا يليق بناس عاديين. وهؤلاء الذين صنعوا هذا المكان... لم يكونوا أغبياء لينسوا مخرجًا، مهما حاولوا دفن الأسرار في الظلمات.

بدأت أتفحّص كل زاوية، كل شقّ في الجدران الحجرية، وكنت أكرر لنفسي: "لا يمكن أن يكون هذا القاع نهاية الطريق." شعرت أن من بناه ترك أثرًا، بصمة ذكية، دليلًا لمن يبحث حقًا عن الحقيقة.

كان الأمر أشبه بشبكة من الخطوط المتشابكة، كأنها لغزٌ مُحكم. التقطت عيناي توهّجًا خافتًا في زاوية غير متوقعة، شبه مخفية خلف لوح حجري غير مثبت بإحكام. دفعت اللوح بحذر. كان ثقيلًا، لكن لم تكن الحجارة وحدها ما يقف في طريقي، بل شجاعة الإصرار التي تحرّكني.

وراء اللوح، كان هناك ممر ضيّق، لا يكاد يتّسع لجسدي، لكنه كان ممرًا فعليًا يؤدي إلى مخرج في أعالي البرج. أدركت فورًا أن هذا المخرج لم يُصنع للعامة، بل لمن يستحق أن يعرف.

وأخيرًا، بعد انزلاق صامت عبر الممر الضيّق، وجدتها: فتحة صغيرة عالية تقابلني كنافذة أمل. تسلّقت بحذر، مستعينًا بجدران البرج، حتى انطلقت خارج القاع، أستنشق هواء أوفاليس النقي، وأشعر أنني خرجت من الأسر إلى مهمة أكبر.

كان الخروج أكثر من مجرد فرار... كان انتصارًا لحقائق لا يمكن دفنها أبدًا.

لم أكن أفكر إلا بشيء واحد وأنا أعبر السهل الممتد بين البرج القديم وأوفاليس: "لا يجب أن تبقى هذه الحقيقة في صدري."

لطالما اعتقدت أن بعض الأسرار تُحفظ لحماية من نحب، لكن ما عرفته في الأعماق لم يكن سرًّا... بل قيدًا خفيًّا، قُيّدت به أوفاليس كلها دون أن تدري. وإن لم أفتحه الآن، فسنموت جميعًا ونحن نظن أن الموت جاء من العدم.

خطوتي كانت أسرع مما توقعت... كأن الأرض نفسها تدفعني، وكأن جذور شجرة النُّور، رغم ذبولها، تصرخ في داخلي تطالب بالعدالة.

لن أخبر نويس أو رانيل فقط. لن أكتفي بأن أجعل هذا همّ النخبة، ولا أن أقرّر وحدي كيف نُكفّر عن ذنب لم نرتكبه نحن، لكننا نعيش عواقبه. الكل يجب أن يعرف.

من يزرع التلال، من يحمل الأطفال إلى المدارس، من يحرس البوابات، من ينام جائعًا قرب نبعٍ جفّ، هؤلاء لهم الحق أن يعرفوا أن ما يحدث ليس قدرًا، ولا لعنة من السماء... بل إرث ثقيل دفنه أجدادهم تحت الأرض، وظنّوا أنه لن يصعد أبدًا.

سأقف في قلب المدينة وأجعل الحقيقة تنساب من لساني كالنار في الهشيم.

فليغضب من يغضب. فليتشقق جدار المدينة من هول الصدمة. لكن لن يُقال عني إنني عرفت... وسكت.

خطواتي على الحصى بدت غريبة حتى عليّ، كأنني لا أعود من مغامرة، بل من زمن آخر، وأنا الآن دخيل على لحظة لم تُكتب لي.

كان الضوء يتسلل بين أغصان شجرة الحُرّاس، باهتًا كأنه يخجل من النظر إليهم.

نويس ورانيل. كانا هناك، يشبهان ظلّي الذي لم أعد أحمله.

نويس، رغم قصر قامته، بدا وكأنه تقلّص أكثر... شيء في كتفيه كان منحنِيًا، ليس من التعب، بل من غياب ما لا يمكن تعويضه. ورانيل... لم تكن تبكي، لكنها بدت وكأنها بكت منذ قرن وتوقّفت فجأة، لأن لا دموع تكفي لتوديع من لم يُدفن.

لم أنطق. لم أصرخ. لم أخبرهما أن كيران، الحارس الذي ظنّوه سقط إلى قاع النسيان، قد عاد يحمل معه وجعًا أقدم من ذكرياتهما.

هو من رآني أولًا... نويس.

تجمّد كأنما أصيب بسهم من وهم. لم يتحرك، لكن عينيه صرختا... صرختا باسمي، بكل الندم، بكل الأسف، بكل شيء.

ثم ركض نحوي كأن الزمن ذاته دفعه، كأن كل يوم قضاه يلعن فيه فشله في إنقاذي قد اجتمع الآن بين قدميه.

شدّني إليه. لم يعانقني، لا... بل خنقني بعناق لا يليق إلا بمن عاد من قبر لم يُحفر. همس بصوت غريب، مكسور، لكن مشبع برجولة فقدت رفيقها: "لم يكن من المفترض أن تموت... ليس أنت."

رانيل... وقفت قربي، ويدها امتدّت بتردّد، كما لو كانت تخشى أن ألمسها فأذوب.

"كنا نظنّك... متّ." قالتها وكأن الكلمة ترفض أن تخرج من شفتيها، كأنها لا تزال تخونها.

نظرت إليهما، وصدري ممتلئ بأكثر من الهواء... بدهشة، بألم لا يشبه الحزن. كنت أعتقد أنني مجرد قطعة في رقعة الحُرّاس، قابلة للاستبدال. لكن في عيونهما رأيت الحقيقة التي لم أتوقعها: أن هناك من انتظرني، من نزف غيابي كأنه فقد نصف قلبه.

"عدت." قلتها، بصوتي الذي ما زال خافتًا تحت وطأة ما رأيت. "لكنني عدت محمّلًا بما هو أثقل من الموت."

ابتعد نويس خطوة. رانيل حدّقت بي.

تقدّمت ببطء، نظري يتنقّل بين ملامحهما التي بدت متجمّدة، لكن قلبي كان يطرق صدري بعنف.

"هناك أشياء... رأيتها." قلت، وصوتي خرج أكثر هدوءًا مما شعرت، وكأن الكلمات نفسها لا ترغب في كشف ما تحمله.

"أشياء ستغيّر كل ما نعرفه عن أوفاليس، عن ماضينا... وعما ينتظرنا إن لم نتحرّك."

ارتفعت حاجبا رانيل، فيما ضاقت عينا نويس.

أضفت وأنا أنظر نحو ساحة أوفاليس:

"لا يمكنني قول شيء لكم وحدكما. على الجميع أن يسمع. على كل روح في أوفاليس أن تعرف الحقيقة التي خُبّئت عنهم."

كان صمتهما ثقيلًا. تبادلا نظرة قصيرة، كأن شيئًا ما في جملتي لم يُعجب نويس، أو ربما كان يحاول أن يفهم مدى جدّيتي. رانيل لم تقل شيئًا، لكنها تقدّمت خطوة، مستعدة، كمن يعرف أن اللحظة القادمة ستترك أثرًا لا يُمحى.

كنا على وشك أن نبدأ السير نحو الساحة، حين شدّني شعور غريب. كأن شيئًا انتُزع مني ولم ألحظه إلا الآن. كأن صرخة... لا تزال معلّقة في رأسي.

توقّفت. نظرت إليهما. وتردد السؤال من بين شفتي كأنني أستجديه أن يخرج: "لحظة..." رمشتُ، كمن يطرد ضبابًا داخليًا.

"آريانا..." سقط الاسم من فمي كأنه حجر في بئر.

استدارا نحوي، لكن وجهيهما تغيّر.

"كانت معي... في الكهف. سقطتُ وحدي، لكنني سمعتها تصرخ... تصرخ باسمي."

شعرت بوخز في صدري، لمجرد تخيّل وجهها في تلك اللحظة، عيناها تتسعان، يداها تمتدان ولم تصلاني.

"هل... هل هي بخير؟" سألت، وسقط السؤال بيننا ثقيلًا كأنه بلا جواب.

نويس لم يتكلّم. رانيل لم تهزّ رأسها. اكتفى الاثنان بالنظر إلى بعضهما. نظرة قصيرة... لكنها عميقة، كأنهما تبادلا حزنًا، أو سرًّا، أو شيئًا لا يُقال.

شعرت ببرودة تسري في أطرافي.

"لماذا تصمتان؟" خرج سؤالي أقسى مما أردت. ليس اتّهامًا... بل خوفًا.

لكن صمتهما ازداد، وكأن بينهما وبين الجواب هوّة لا تُعبر بالكلمات.

رفعت بصري نحوهما، وقلبي بدأ يتآكل من الداخل.

ماذا حدث؟ أكانت صرخة آريانا هي الأخيرة؟ أم أن وراء هذا الصمت قصة لا أجرؤ حتى على تخيّلها؟

التفتا إليّ معًا، لكن هذه المرة لم يكن في وجهيهما ذلك الجمود الذي أخشاه، بل شيء أقرب إلى الحذر، إلى المواساة غير المباشرة.

رانيل أجابت أولًا، بصوت بدا كأنه يمشي على أطراف الكلمات:

"هي بخير، كيران... فقط حزينة. لم تتقبل فكرة أنك... أنك سقطت ولم تعد."

أحسست بشيء يشدّ صدري إلى الداخل.

نويس أكمل، بعينين ثابتتين:

"آريانا لم تتوقف عن البحث، ولا عن البكاء... لكنها الآن ترتاح في البيت. اعتقدنا أنه من الأفضل أن تبتعد قليلًا."

ثم أشار بخفة نحو الساحة المرتفعة خلفنا:

"لكن الآن، يجب أن نُسرع. الناس ينتظرون، كيران. ما اكتشفته... قد يكون هو الفرق بين الحياة والموت لأوفاليس."

تردّدت للحظة. شيء في صوتهما بدا منضبطًا أكثر مما ينبغي، كأنّ هناك ما لا يُقال، رغم صدقهما الظاهر.

لكنني لم أجادل. لا الآن.

القلق على آريانا عالق في صدري كغصّة، لكن ما أحمله أثقل من مشاعري الشخصية.

"حسنًا... لنذهب."

قلتُها أخيرًا، وأنا أشعر أن خطاي تسبق شكوكي، لا تهرب منها.

لم تكن قدماي ثقيلتين بسبب التعب، بل لأن قلبي هو من أثقلهما. وقفتُ وسط ساحة أوفاليس، وعيوني تحاول أن تتفادى التقاء العيون الأخرى، لكنها كانت تحاصرني من كل اتجاه... أمهات ضامّات إلى صدورهنّ أطفالًا ذابلي الوجوه، ورجال أكل القلق ملامحهم، شيوخ جلسوا في الظل كأنهم ينتظرون حكمًا أخيرًا، ووجوه أعرفها منذ كنت طفلًا... لكنها الآن غريبة، لا تشبه الوجوه التي حفظتها. وجوه

مُثقلة بخيبة، بخوف، بأمل منهك. رفعت بصري نحوها... شجرة أوفاليس، ذلك القلب الأخضر الذي طالما تنفّسنا من نبضه، ينهار الآن أمامنا أوراقًا يابسة تتساقط كما تتساقط الأيام من بين أيدينا.

تجمّع الناس من حولي، يتوسّمون فيّ شيئًا... لا أعلم إن كان خلاصًا أم تفسيرًا، وربما مجرّد كذبة نبيلة تخفف عنهم هذا الانهيار. أحسست حينها أن الهواء أضيق من أن يُستنشق...كيف لي أن أنطق بما أعرف، دون أن أنهار أنا أيضًا؟ كيف أخبرهم أن ما ينهش أرواحهم اليوم، ما يفقدهم أبناءهم وأحبّتهم، ليس لعنة من السماء، بل جريمة دفنتها الأيدي ذاتها التي أوهمتهم بالحكمة والقداسة؟

كنت أبحث في رأسي عن بداية أقلّ قسوة، عن كلمة تسبق كلمة، عن نغمة لا تُفجع قلوبهم، لكن...كيف يُقال الحق حين يكون مسمومًا؟ كيف أواسيهم وأنا أشعر أنني أحمل سكينًا في كل جملة؟ هم لا يعلمون، لكنني وقفت في قلب العتمة، هناك في قاع البرج القديم، ولم يكن الخوف هو ما أبكاني... بل الخزي، الخزي من أولئك الذين كانوا يومًا يُعدّون رموزًا، فانكشفت خطيئتهم في ورقة قديمة وصمتٍ مدفون.

تقدّمت خطوة. صمت الساحة كان يئنّ. ابتلعت ريقي، وكان كأنني أبتلع حجارة. قلت لنفسي: "ليس الوقت وقت تردّد... إن كان لهذه المدينة أن تحيا، فعليها أن

تسمع الحقيقة، عارية كما هي." رفعت رأسي، وثبّت نظري في العيون الكثيرة التي تنتظر. وقلت:

"أنصتوا لي جيدًا... ما سأقوله الآن قد يغيّر كل ما ظننتم أنكم تعرفونه عن أوفاليس... وربما عن أنفسكم. اسمعوني حتى النهاية، لأن الحقيقة لا تعترف بالنصف."

تقدّمت خطوة أخرى. رأيت أمًّا تضع يدها على كتف صغير ناحل، وطفلًا يغمض عينيه كما لو أنه يخشى الكلمات القادمة.

"منذ زمن بعيد... قبل أن نولد، وقبل أن نعرف ما تعنيه كلمة أوفاليس، وقبل أن تذبل شجرة النور... ارتُكبت جريمة عظيمة، جريمة لم تُنفّذ بالسيوف... بل بالصمت. لم تُحفر في أجساد الناس... بل في ذاكرتهم، حين مُحيت."

تلفّتُّ حولي، وعيناي تبحثان عن أي نقطة ترتكز عليها كي لا تسقطا في بحر الحزن.

"كان هنالك عهدٌ بيننا وبين كاثرينا... عهد نور، عهد شراكة، عهد مصير واحد. لكن بعض من سكنوا أرضنا قبلنا، ممن وُصفوا بالحكمة، ارتأوا غير ذلك. في زمن شحّ فيه النور، وبدأ الخوف يتسلل، اتُّخذ قرار لم يُستشر فيه أحد... أن تُفك

الشراكة، أن تُسحب جذور الشجرة من أرض كاثرينا، وتُختزل في أوفاليس وحدها. خيانة كاملة... تمزيق عهدٍ مقدّس."

شعرت بصوتي يخنقني، لكنني تابعت:

"من فعلوا ذلك لم يكتفوا بجريمتهم... بل دفنوها. صنعوا غرفة سرية في قاع برج، ودفنوا هناك الوثائق، والأدلة، وحتى أصواتهم. تركوا أبناءهم وأحفادهم يحيون على كذبة... ونحن جميعًا كنا أولئك الأحفاد."

أخذت نفسًا عميقًا، وحدّقت في شجرة النور.

"وذبلت شجرة أوفاليس... ليس لأنها شاخت، بل لأنها اقتُلعت من نصفها الآخر، من كاثرينا. هي لم تكن مجرد شجرة...كانت جسرًا. وما إن حُطّم هذا الجسر، بدأ كل شيء في الانهيار."

شعرت برعشة تمرّ في ظهري، ليس من البرد... بل من وقع الحقيقة حين تُقال لأول مرة.

"لقد قرأت السجلات، تتبعت الشهادات، جمعت ما تبقى من حطام الحقيقة. سقطت في الظلام...كي أعود بالنور. وما أخبرتكم به الآن هو البداية فقط... لكنها بداية يجب أن نواجهها جميعًا. كفى صمتًا، كفى خنوعًا لتاريخٍ كتبه الخوف.

علينا أن نقرر الآن... هل نعيش بقايا كذبة، أم نُعيد مدّ الجسور... حتى لو كان ذلك أصعب من الموت؟"

أسندت بصري على الحشود. لم أعد أراهم وجوهًا، بل مرايا لما نحن عليه. وهم أيضًا، لم يعودوا ينظرون إليّ ككيران الحارس. كان هناك شيء آخر في نظراتهم... انتظار.

"أنا قلت ما عندي... والآن، القرار قراركم."

بعد أن أنهيتُ كلماتي، ظلّ كل شيء ساكنًا... حتى الرياح امتنعَت عن التسلل بين فروع شجرة النور، كأنها بدورها تستمع. لكن الهدوء لم يدم طويلًا. كأنني نزعت غطاءً عن وعاء من الأسرار الساخنة. تسارعت الأنفاس... ارتفعت الحواجب... وتشابكت النظرات، ثم بدأت الوشوشات تنمو كعشب بريّ في ساحة أوفاليس.

"هل قال إنهم دفنوا الخطيئة؟ تحت برج الضوء؟"

"وهل من الممكن أن تكون سنوات المرض والذبول كلها... نتيجة خطيئة قديمة؟"

"كانوا يلقّنوننا عن صفاء سلالة أوفاليس... فكيف يكونون خونة؟"

امرأة مُسنّة سقط وشاحها عن كتفها دون أن تنتبه... كانت تحدّق في الشجرة، وتتمتم بكلمات مبعثرة. رجلٌ إلى جانبها ضمّ حفيده بين ذراعيه بقوة... كان الصبي قد بدأ يسعل من جديد. كان المشهد كله... وجعًا قديمًا يتحوّل إلى دهشة مريبة.

ثم تقدّم أحد الرجال ذوي الوجوه المتجعدة بخطى مترددة، وصوته خرج كمن يسأل عن حلم لا يجرؤ على تصديقه:

"كيران... ماذا عن المنقذ؟"

أعاد أحدهم السؤال بصوت أعلى، وكأنه يحمل جوع الجماعة كلها:

"نعم! تلك الأوراق القديمة التي وجدها الحكماء بعد أن بدأت شجرتنا تذبل...قالوا إنها تتحدث عن منقذ، غريب، لا يشبهنا، سيأتي من عالم آخر، ليعيد الحياة."

امرأة من الصف الثاني رفعت يدها فجأة، صوتها مبحوح لكنه ثابت:

"قالوا إن الحُرّاس وحدهم سيعرفون كيف يتواصلون معه...عبر طقوس قديمة لا يعرفها سوى من يحمل ختم النور."

آخرون هزوا رؤوسهم، وبدأت ملامح الترقّب تظهر كوهج خافت فوق الخيبة.

"هل وجدته يا كيران؟"

"هل المنقذ في البرج؟ هل كنت هناك لتقوده إلينا؟"

تجمّعت أصواتهم... أسئلتهم تنقر على صدري كالمطر على صفيح ساخن. أعرف الجواب... لكن وقعه أثقل من أن يُقال بسهولة. تنفّست بعمق، ثم قلت:

"قرأتُ كل حرف، كل نقش، كل رقّ ممزق، كل سطر مغبر... لكن لم أجد أثراً لمنقذ. لا اسم، لا طقس، لا باب سري... لا نبوءة. ما وجدته كان أقدم من النبوءات... وأبشع."

همسٌ آخر...ثم صدمة أكبر من السابقة:

"لكن... كيف؟ الحكماء أقسموا أن الأوراق كانت حقيقية! هل أخطأوا؟ أم أن هناك من أراد أن نعلّق أملنا على وهم؟"

رأيت نويس يعبس، نظراته تجوب الحشد، بينما رانيل أطرقت برأسها. أما أنا... فكنت أراهم يعودون شيئًا فشيئًا إلى نقطة البداية. لم يعد لديهم يقين... ولا منقذ يتعلّقون به. وكل ما بقي أمامهم... هو المرآة التي وضعتُها في وجوههم للتوّ.

وسط ذلك الموج من الأسئلة، والهمسات المشوشة التي بدأت تأخذ طابعًا أكثر اضطرابًا، ارتفع صوتٌ من بين الجمع، حادًّا كالسهم، وموجّهًا دون تردّد:

"وماذا عن تلك الفتاة؟!"

سكنت الأصوات فجأة، كأن أحدهم ألقى الحيرة في وجوههم على هيئة سؤال.

الرجل نفسه تقدم خطوة، نظر نحوي بعينين حادتين كمن يطالب بالحقيقة، لا يسألها:

"تلك الغريبة... آريانا. من تكون إن لم تكن منّا؟ وإن لم تكن المنقذة؟"

تبعته همهمات أخرى... امرأة همست لصديقتها:

"شعرها لا يشبه شعرنا، وعيناها...كأنهما لا تنتميان لأي وادٍ من وديان كاثرينا."

رجل نحيل في الخلف صاح:

"ظهرت فجأة، بلا أصل، بلا ماضٍ... ثم بدأت الأمور تنهار أكثر منذ قدومها!"

بدأ القلق يتصاعد مثل دخان من نار لم تُعلن عن اشتعالها بعد.

"من أتى بها؟"

"أين كانت قبل أن تصل إلينا؟"

"لماذا ظهرت في هذا الوقت بالذات؟"

نظرت إليهم، إلى نظراتهم التي كانت قبل لحظات تطالب بأمل، والآن تطالب بمتهم. الحشد الجائع للإجابات... بدأ يبحث عن كبش فداء. أحد الرجال قالها دون مواربة:

"إن لم تكن منّا، ولا من كاثرينا، ولم تكن هي المنقذة... فمن تكون بحق السماء؟!"

سيدة من الجهة الأخرى، كانت تمسك بيد صغيرها الهزيل، شهقت:

"هل جلبت اللعنة؟ هل... هل هي سبب ما يحدث؟"

تبادلت الوجوه نظرات متوترة... القلق تحوّل إلى اتهام صامت، يطوف بينهم مثل طيف غامض. أما أنا... فوقفت هناك، أحاول أن أثبّت وقع الأرض تحت قدميّ، كأنّي أقاوم انجرافًا نحو هاوية لا أراها، لكنها تقترب.

لم أكن أتخيل أن يُسحب اسمها من بين أفواههم بهذا الشكل... ولم أكن أعرف إن كنت سأملك القدرة على الدفاع عنها، وأنا نفسي... ما زلت أبحث عن الحقيقة.

رفعتُ يدي، لأوقف ذلك السيل العارم من الأصوات المتداخلة، والتساؤلات المتلاحقة، والعيون المذعورة التي بدت وكأنها تبحث عن مخرج في وجهي.

"كفى." قلتُها بهدوء، لكن بحد يكفي ليسكت الشك للحظة.

"أعلم أن رؤوسكم تمتلئ بالأسئلة...صدقوني، رأسي أنا أيضًا يضجّ بها."

توقّفتُ لحظة، أتأمل وجوههم، وجوهًا جفّ الأمل من عروقها، وبات الخوف فيها بديلاً عن النبض.

"لكني لا أملك كل الأجوبة... ليس بعد."

أخفضتُ نبرة صوتي، لكنه ظل ثابتًا، كمن يضع حجرًا أول في جدار الحقيقة:

"ما وجدته في قاع البرج غيّر أشياء كثيرة. كشف لي عن خطيئة... لا عن حل. لا عن منقذ، ولا عن أسطورة تحملنا على أجنحتها بعيدًا عن الواقع."

"نحن مطالبون الآن أن نكمل هذا البحث... لا أن نصنع لنا مذنبًا نحمله كل آلامنا."

نظرت إلى أولئك الذين اتهموا آريانا بأعينهم قبل أفواههم:

"أما آريانا... فسأعود لأسألها. هذه المرة، بدقة. سأعرف منها، بكل وضوح، كيف وصلت إلى أرضنا. وسأطلعكم على كل ما سأكتشفه."

تلفّتُّ حولي، أكدت كلماتي بجملة حازمة:

"وحتى ذلك الحين، هي تحت رعايتنا، وتحت رقابة الحراس، ولن تضرّ أحدًا."

عمّ الصمت الساحة مؤقتًا... لا اقتناع تام، لكنهم استمعوا، وهذا كافٍ الآن.

ثم وجهتُ نداءي لهم جميعًا:

"إن كنتم تعرفون شيئًا، سمعتم همسة قديمة، حكاية موروثة، أو عثرتم على أثر أي شيء قد يربط هذه الفوضى بخيط واحد، أخبروا الحراس، أخبروني."

"لن تُبنى الحقيقة على ما أملكه وحدي، بل على ما نملكه معًا."

ثم التفتُّ إلى نويس ورانيل، اللذين وقفا منذ البداية صامتين، يتبادلان النظرات فيما بينهما أكثر مما يوجهانها إليّ.

"نويس، رانيل... دعانا نذهب. أريد أن أتحدث مع آريانا."

نظرا إليّ في نفس اللحظة... كأن أحدهما توقّع طلبي، والآخر خافه.

كانت رانيل أول من حرّك عينيها بعيدًا، بينما شدّ نويس قبضته خلف ظهره، ثم قال دون أن يلتقي نظري مباشرة:

"بالطبع، كيران... لكن..."

تابعت رانيل، مبتسمة ابتسامة قصيرة لا تصل إلى عينيها:

"حسنًا... دعونا نذهب."

نظرت إليهما، وتأملت صوتهما المتحكّم المطمئن... لكن شيئًا ما... لم يكن على ما يرام.

***

كان الصمت يملأ البيت سميكًا، خانقًا، لا يُحتمل. ليس صمت الرضا ولا الطمأنينة، بل ذلك الصمت الذي يسبق الانفجار. صمت تتكدّس فيه الكلمات غير المنطوقة فوق الأسطح، وتختبئ فيه النظرات بين الزوايا، مثل غبارٍ لا يجرؤ أحد على لمسه.

كل شيء بدا طبيعيًا... أكثر مما ينبغي.

دخلت بخطى محسوبة، كأن الهواء نفسه بات يثقل صدري، وكأن الجدران تحبس أنفاسها عني. الممر، الباب نصف المفتوح، الأرائك المرتبة بلا حياة... لا شيء ينبض بالحضور. ولا أثر لآريانا.

سألت، بنبرة حيادية جدًا، كأنها ليست أولى الكلمات، بل جملة تُقال فقط لملء الفراغ: "أين هي؟ أريد أن أراها."

نويس لم يرد. رانيل خفضت عينيها كما لو أنّ شيئًا في داخلها انفجر دون صوت.

أضفت بعد لحظة، بصوت هادئ أكثر مما ينبغي: "قلتما إنها هنا... تستريح. لكن لا يبدو أن أحدًا في هذا البيت..."

رانيل فتحت فمها لتتكلم، لكن نويس بادر، صوته حادّ ككسر زجاج: "لم نكن نعرف كيف نخبرك... لم نجد وقتًا مناسبًا."

كلماته لم تصدمني، بل تجمّعت بداخلي، ثقيلة كأنها حجرٌ ابتلعته دون أن أشعر.

قالت رانيل، بصوت هشّ يشبه من يتكئ على خيط يتآكل: "كنا خائفين، كيران...خائفين. الحقيقة أن آريانا... ليست هنا."

اقتربت خطوة، لا لأني أردت، بل لأن شيئًا بداخلي تحرّك دون استئذان: "أين إذًا؟"

نويس لفظ الجواب كمن يخرجه من صدره منذ أيام: "سُجنت. بعد سقوطك، اتهمها الجميع. قالوا إنها تسببت فيما حدث، إنها خدعتك. لم يصدق أحد روايتها."

قاطعت رانيل بسرعة، بنبرة مرتجفة: "لكنني صدّقتها، كيران. رأيت الرعب في عينيها... لم تكن تكذب. كانت تنهار. وأنا... لم أحتمل رؤيتها هكذا."

نظرتُ إليها، بصمت، كما ينظر المرء إلى ذكرى لا يريد استحضارها.

فأكملت، كأنها تقاوم نفسها: "فهرّبتها من السجن وأرسلتها إلى الغابة المحرّمة. لم يكن أمامنا خيار."

نويس انفجر صوته فجأة: "لم يكن لكِ الحق! هذا خرق لقرار المجلس!"

"قرار المجلس؟!" ردّت رانيل، والغضب أخيرًا خرج من عقاله، "لقد سجنتَ فتاة بريئة لأن اللوم كان أسهل من الحقيقة!"

"وهربتها إلى غابة ملعونة!" زمجر نويس، "لو بقيت، لكانت بأمان. أما الآن؟ لا أحد يعلم إن كانت لا تزال حيّة!"

"لا تتحدث عن الأمان،" ردّت وهي تضحك بسخرية مريرة، "كنت تحمي نفسك، لا آريانا!"

كنت أستمع إليهما، لا كضيف ثقيل، بل كمن يرى بيتًا يعرفه ينهار على رؤوس أصحابه.

قلت بهدوء، ببرود لا أعهده في نفسي: "ومنذ عودتي...كذبتما."

همست رانيل: "كنا ننتظر لحظة مناسبة."

نظرتُ إليها، ثم إلى نويس. "مناسبة... لمن؟"

تأملت الباب المغلق. تخيلتُ ظلاً جالسًا خلفه. صامتًا. كما تخيلتها كثيرًا، وحدها في مكان لا يسمعها أحد.

عدتُ بنظري إليهما، هذه المرة بلا ملامح، بلا انتظار، بلا غفران: "الكذبة لا تحمي أحدًا ...هي فقط تجعل السقوط مؤلمًا أكثر."

سكتا. لكن الصمت لم يعد محصورًا بالجدران. تسلل إليّ، ثقيلًا، خشنًا، لا يُطرد بسهولة.

تركتهما يتشاجران خلفي. لم أعد أحتاج مزيدًا من الكلمات. منذ أن سمعتهما يقولان "ليست هنا"، صار كل حرف بعدها مجرد صدى.

من على حق؟ نويس البارد؟ أم رانيل المتسرّعة؟ لا أعلم، ولا أسعى لذلك. أنا فقط... لا أحتمل فكرة أنها وحدها.

خرجتُ من المنزل كأن شيئًا ما يدفعني. لم أكن أهرب، ولم أكن ذاهبًا بحثًا عن وهم، بل عن طمأنينة واحدة... أن أراها بعيني، حتى لو من بعيد.

لم أفكر كثيرًا، لم أحمل شيئًا، لم أنتظر أحدًا. خطوتي كانت مبررة... على الأقل أمام نفسي. لا يمكن أن تُترك وحدها في مكان كهذا.

حين وصلتُ إلى أطراف الغابة المحرّمة، كأن شيئًا داخلي صرخ في وجهي: إن كنت تملك قدمين، فابحث... لا تجلس كمن ينتظر المعجزة.

بدأت أفتّش. ليس فقط بالمعنى الحرفي... بل كما يُفتش الغريق عن نفسٍ في قاع البحر.

مررت بين الأشجار، دفعت الأغصان بيدي، سحبت أوراق الشجيرات، رفعت الحصى عن الأرض، بل حتى مددت يدي تحت الجذور اليابسة.

ناديت اسمها مرات. مرةً بهمسة، كأنني أخشى أن أوقظ شيئًا خائفًا في الغابة... ومرةً بصوت مرتفع، كأنني أتحدّى الأشجار أن تخفيها عني.

فتّشت تحت كل شجرة... كل واحدة بدت لي كأنها تخفي سرًا. خمنت أين يمكن أن تختبئ لو كانت خائفة، أو مرهقة، أو مجروحة. أين يمكن أن تنام لو اشتدّ بها الإرهاق.

مررت بأماكن لا تطؤها الأقدام عادة... منحدرات مكسوة بالطحلب، وفتحات بين الصخور لم يدخلها الضوء منذ زمن.

عند كل نبتة توقفت، لا بحثًا عن ظلها فقط... بل عن أثر لرائحتها، خيط من شعرها، حتى أثر قدمها.

بحثت بجنون من يحاول تكذيب ما قيل له. وكأن وجودها وحده كان كافيًا ليقنعني أن ما حدث مجرد كابوس.

لكن... لم أجدها.

الغابة كانت أكبر من كل ظن، وأصعب من أن تُقرأ. والمشكلة أنني كلما فتشت.. زادت المسافة بيني وبين الأمل.

بعد ساعات، لا أعلم عددها، توقفت. الليل كان قد بدأ ينسلّ من بين الأشجار، ومعه البرد...ومعي خيبة لا تشبه أي خيبة أخرى.

وقفتُ أخيرًا في المنتصف...أغمضت عينيّ. استسلمتُ في النهاية، دون حتى أن أقرر ذلك. كان الجسد هو من اختار التراجع، أما روحي فبقيت هناك، في مكان ما، عند صخرة، تحت شجرة، تنتظر أن يسمعها أحد.

عدتُ إلى البيت. أغلقت الباب، وجلست في الظلام... أخفضت رأسي، ولم أنبس بكلمة. تساءلت حينها إن كنت قد أخفقت... إن كان يجب أن أبدأ بحثي أبكر، أن أركض أسرع، أن أصرخ أكثر.

ثم غفوت. لا، لم يكن نومًا حقيقيًا. كان جسدًا خامدًا، وقلبًا يسهر وحده.

حتى سمعت الباب يُفتح. رفعت رأسي فجأة. قلبي سبقني إلى الباب. وكانت هناك واقفة. شاحبة قليلاً، لكن واقفة. ملابسها متّسخة، شعرها مبعثر، لكن في عينيها شيء يشبه النجاة.

وقفتُ، نظرت إليها ولم أقل شيئًا. لا لأنني لا أريد، بل لأن كل الكلمات التي أعرفها بدت تافهة. كنت فقط أحدّق بها، وفي داخلي شيء ينفجر بصمت.

لماذا لم أصرخ؟ لماذا لم أركض نحوها؟

ربما لأنها لو عرفت كم كنت خائفًا، لكان عليّ أن أشرح أمورًا لا أعرف لها أسبابًا الآن.

كنت أراها... لا كمن يراها لأول مرة، بل كمن لم ينتبه لجمالها إلا حين أوشكت على الغياب. لم تكن جميلة فقط، كانت مثل مكانٍ تعرفه دون أن تزوره... كظلّ

يسكن زواياك دون أن تدري متى دخل. عيونها كانت مرهقة، لكنها لا تزال تحتفظ بذلك البريق الحاد، كأن شيئًا داخلها لا ينكسر مهما حدث.

أردت أن أطمئنها. أن أقول لها إنها بخير الآن. لكنني فقط... اكتشفت أنني كنت أحلم.

***

لم يكن الفجر قد اكتمل بعد حين فتحت عينيّ. وجهي شاحب، وعيناي متعبتان... لم أنم، لم أستطع. قضيت الليل بأكمله ما بين التفكير، والتخيل، والرجاء.

رغم كل شيء، رغم الألم والخذلان، كان في داخلي شيء يرفض أن يستسلم. آريانا... لم تختفِ من داخلي بعد.

أخذت عباءتي، وسيفي، واندفعت نحو الباب كمن يسابق الزمن. لكن صوتًا حادًا أوقفني في مكاني... نويس كان هناك، واقفًا بثباته المعهود، كما لو كان يعرف أنني سأخرج.

"إلى أين تظن نفسك ذاهب؟"

سألني بنبرة صلبة، لا تنم عن رغبة في الفهم، بل في المحاسبة.

نظرت إليه، وقلت بصدق: "سأذهب لأبحث عنها."

كأن شيئًا انكسر في وجهه لحظتها. جاء رده سريعًا، غاضبًا، قاسيًا:

"عن آريانا؟! هل ما زلت تفكر بها؟! نحن لسنا مسؤولين عنها، كيران!"

تقدّم نحوي خطوة، وعيناه تشعّان توترًا وغضبًا مكتومًا.

"جاءت من العدم! لا أحد يعرف من أين أتت ولا لماذا ظهرت، والآن اختفت. هل فهمت؟ اختفت، كما ظهرت. ونحن أعدناها إلى حيث وجدناها أول مرة، إلى الغابة المحرّمة!"

حاولت أن أتحدث، لكنه لم يُمهلني. كان صوته يعلو، يغلب عليه القلق أكثر من القسوة، لكنه لا يعترف به:

"هذا كل ما يمكننا تقديمه لها. إن كان لها طريقٌ للعودة، فستجده. كما وجدت طريقها إلى هنا."

ثم صمت لحظة، وكأنه يحاول كبح غضب إضافي، قبل أن يضيف بنبرة صارمة، كمن يذكّر جنديًا انحرف عن مهمته:

"هل تتذكر من أنت؟ كيران، أنت حارس أوفاليس. هناك خطرٌ يقترب، ونحن نغرق في ألغاز لم تُحل. هنالك أسرار، ومصير وطنٍ بأكمله معلّق على أكتافنا."

"لا وقت لنضيّعه على فتاة مجهولة...!"

حدّقتُ فيه للحظة، ثم أخذت نفسًا عميقًا.

"أعلم، نويس... كل كلمة قلتها صحيحة، لكن..."

صمته الأخير كان أشد من كلماته. شعرت بمرارة في حلقي. نعم، هو محق... جزئيًا. لكنه لا يفهم. ولن يفهم.

وقفتُ هناك طويلًا، بين الباب الذي يقودني للبحث عنها، وبين المسار الذي ينتظرني كحارس لوطن يحتضر.

وفجأة، قبل أن أقرّر، سمعت وقع خطوات خفيفة... ثم صوتًا ناعمًا، حازمًا رغم رقّته، يخرج من خلف الباب: "هذا يكفي..."

استدرت، ورأيتها. رانيل، تقف هناك بهدوئها المعتاد، لكن ملامحها كانت جادّة أكثر من أي وقت مضى.

تقدّمت نحونا بخطوات بطيئة، وقالت وهي توجه كلامها إليّ:

"كيران... آريانا ستكون بخير، صدقني. لا أحد يمكنه إيذاؤها في الغابة المحرّمة، قوانينها تحمي من لا يُهدد توازنها. وإذا لم تجد لها أثرًا، فهذا يعني على الأغلب أنها... وجدت طريق عودتها إلى عالمها."

صمتت لحظة، ثم أضافت بلطف عميق:

"لقد فعلت كل ما بوسعك... والآن، عليك أن ترتاح. أمامنا طريق طويل، وأوفاليس بحاجة إلينا. الوقت لا ينتظر، وكشف الأسرار لن يتم إلا ونحن بكامل قوانا."

نظرتُ إليه كلامها كان كنسمةٍ بعد عاصفة. أخفضت بصري قليلاً. ربما كانت محقّة ...ربما.

عدتُ إلى الغرفة. أغلقت الباب كما أغلقت كثيرًا من الأبواب في حياتي... لكن هذا الباب، خلفه أنا، رجل لا يعرف نفسه هذا اليوم.

جلستُ على حافة السرير. وضعت يدي على السيف...كأن لمسته تذكّرني من أكون.

كيران... الحارس الذي لا يتراجع. صلبٌ كالصخر. لا مكان للضعف فيك. هكذا كنت، وهكذا يجب أن أبقى.

لكن داخلي الآن فوضى. كأن شيئًا انكسر. لا، ليس انكسارًا... بل انزلاق هادئ، غامض... نحو ما لا أستطيع تسميته.

آريانا... اسمها وحده يربكني. ما الذي فعلته بي؟

أنا من لم يخشَ مواجهة المجهول، ولا اختراق الغابات، ولا تحديات الألغاز القديمة ...

أتلعثم أمام ذكرى نظرتها؟ أخاف عليها كأنها حملٌ من ضوء، هشّ، قد يخبو في أي لحظة؟ من أين جاء كل هذا؟ هل لأني رأيت فيها شيئًا شبيهًا بي؟ تائهة... منبوذة... ضائعة في عالم لا يعرفها، ولا يرسّخ لها جذورًا؟

هل رأيت فيها صورة ذلك الفتى الصغير الذي أُلقي عليه عبء الحراسة دون أن يُسأل؟ هل كنت، بطريقة ما، أحاول إنقاذ نفسي من خلالها؟ أن أشعر بشيء... غير الوجوب؟ غير الانضباط؟ غير الحرب؟

هل لأني ظننتها "المنقذة"؟ الأمل الذي كتبته النبوءات وعلّقنا عليه كل شيء؟

لا أعلم وأكره أنني لا أعلم.

أنا رجل أجيد القتال لا الشعور... أجيد الأوامر لا التفسيرات. أجيد الصمت، لا هذه الفوضى التي تعجّ داخلي الآن.

ربما كانت منقذة وطننا، ربما كانت مجرد فتاة ضالة. وربما كانت شيئًا أكبر من كل ذلك...

وأنا؟ أين أنا من كل هذا؟

هل أنا حارسٌ فقط... أم شيء آخر بدأ يولد داخلي دون إذني؟

(٥)

كانت الشمس بالكاد قد ارتفعت، تلوّن أطراف السماء بخجل، فيما خيّم على أوفاليس سكونٌ ثقيل، كأن المدينة كلها تحبس أنفاسها في انتظار شيء ما.

نزلتُ إلى الساحة، وخطاي تكاد لا تُسمع على الحجارة الباردة.

كانت رانيل واقفة هناك، كما لو أنها لم تتحرك منذ ليالٍ، عيناها تبحثان عني دون كلمات. وبجانبها، وقف نويس يحمل حقيبة صغيرة بيده، بداخلها أوراق وعدة نسخ من كتب النبوءة القديمة التي نسخناها منذ أيام.

لم يكن هناك داعٍ للكلام، نظرة واحدة بيننا كانت كافية. كنا نعلم تمامًا إلى أين نحن ذاهبون. قاع البرج القديم لم يعد مكانًا مهجورًا بالنسبة لنا؛ لقد أصبح شيئًا آخر، أقرب إلى غرفة تحقيق... أو غرفة اعتراف... أو ربما ضريحًا دُفن فيه الأجداد أكثر مما اعترفوا به.

كنا نسير معًا في صمت، كتفًا بكتف، كأن الكلمات نفسها أصبحت عبئًا نخشى أن نحمله. كل واحدٍ منا كان غارقًا في أفكاره، يحمل داخله تساؤلات لا يريد أن ينطق بها... خوفًا من أن يصير الجواب حقيقة.

الطريق إلى البرج كان مألوفًا، لكنه بدا في ذلك الصباح كأنه يقودنا إلى قاع أنفسنا، لا إلى بناءٍ حجري.

كل خطوة كانت تثبّت شيئًا فينا، تشدُّ عزيمتنا، وتذكّرنا بما جئنا لأجله.

حين وصلنا، كان المكان كما تركته تمامًا.

الرائحة القديمة نفسها، الغبار ذاته، الأوراق المبعثرة في زوايا الغرفة، والبرد... ذلك البرد الغريب الذي لا يأتي من الجو، بل من الأرض، من الجدران، من زمنٍ لم يغادر المكان أبدًا.

لكن هذه المرة، عدتُ إليه لا كزائر، بل كشخص يملك إرادة واضحة: جئتُ لأفهم.

جلسنا على الأرض، ورصّفنا الأوراق أمامنا كما تُرصّ الأحجيات. المخطوطات التي قرأتها ذات يوم وحدي، أصبحت اليوم مكشوفة أمام أعينهم أيضًا.

بدأنا نقرأ... ورقةً بورقة، جملةً بجملة.

رانيل كانت تدرس الرموز، نويس يحلل الأسلوب والمعاني الخفية، أما أنا، فكنت أبحث في السطور عن ذلك الصمت... الصمت الذي لا يُكتب، لكنه يصرخ بين الكلمات. ذاك الصمت الذي يشبه اعترافًا لم يجد من يكتبه بعد.

في ذلك اليوم، لم نأتِ لنفهم فقط، بل جئنا لنُواجه الحقيقة ونُحاسبها على صمتها الطويل.

بعد ساعاتٍ من التقليب والتدوين والمقارنات، بدت الوثائق وكأنها تكرّر نفسها بطريقة غريبة، كما لو أن من كتبها تعمّد أن يُخفي أكثر مما يُظهر.

نمط الكلمات، تسلسل الجمل، وحتى الرموز في الهوامش... كل شيء يوحي بالتكرار، لا عبثًا، بل خداعًا.

رانيل كانت قد صمتت طويلًا، تحدّق في مخطوطة بعينها، لا تزيح نظرها عنها، ولا تنبس ببنت شفة.

ثم، بصوتٍ خافت كأنه خرج من أعماقها، قالت:

"هل لاحظتما شيئًا غريبًا في كل هذا؟"

نظرنا إليها معًا، ولم نُجب.

أكملت وهي تضع إصبعها على الهامش الأيسر لإحدى الوثائق، كمن يشير إلى جرح لم يُلتفت إليه:

"الكيان... الذي عُقد معه العهد... لم يُذكر اسمه قط. لا وصف، لا ملامح، لا أصل، لا جهة."

تبادلنا النظرات، وارتسمت على ملامحنا دهشة ثقيلة.

كل الوثائق كانت تصفه بكلمة واحدة: "الكيان"، بلا تفاصيل، بلا تحديد. تابعت رانيل، وكأنها تسير بخطى واثقة على حبلٍ خفيّ:

"وفي أوفاليس... لا يُعرف إلا كيان واحد. كيان الكهف المقدّس، الذي تذكره الكتب القديمة على أنه حامي الأرض من الأرواح الشريرة."

أخذ نويس نفسًا عميقًا، ثم تمتم كأنما يستدعي نصًا من ذاكرته:

"مذكور في النبوءات... أنه الوحيد القادر على التعرّف على منقذ أوفاليس... وأنه موجود منذ ما قبل التدوين."

شعرتُ حينها بشيء يرتجف في داخلي. كل الخيوط كانت تقود إلى نتيجة واحدة، مرعبة في بساطتها.

رفعت رأسي نحو رانيل، وصوتي خرج مشوشًا، يتردد بين الصدمة والإنكار:

"أتعنين أن كيان الكهف الرمز المقدّس الذي نحتمي به منذ قرون... هو ذاته الذي خدع الأجداد؟ هو من عقد العهد معهم؟"

رانيل لم تجب مباشرة. أغلقت عينيها للحظة، كما لو كانت تحاول صدّ ما تعرفه. ثم همست:

"لم أعد واثقة من شيء. لكن إن كانت الحقيقة هي ما أظنه... فنحن لم نكن نحتمي... بل كنا مسجونين."

ساد صمت ثقيل. ليس كأي صمت عرفناه من قبل. في تلك اللحظة، لم نكن نقرأ أوراقًا... كنا نقرأ انهيار عالمٍ كامل، بُني على كذبة.

"إذا كان ما نخشاه صحيحًا..."، قلتها كمن يزيح غلالة عن جرح قديم،

"... فهذا يعني أن أوفاليس بُنيت على وهم. كذبة محكمة... توارثناها كأنها تسري في عروقنا."

نويس تمتم بشيء بين أسنانه، لم أفهمه، ثم جلس فجأة على ركبتيه. راح يحدّق في الأوراق كأنه يبحث فيها عن ثغرة تنقذ كل ما عرفناه.

قال بنبرة كئيبة:

"تخيلوا أن نعلن هذا؟ الناس لن ينصتوا... لن يناقشوا... سيحكُمون. سيتهموننا بالكذب، بالردة، بتدنيس كل ما هو مقدّس."

رددتُ بصوت متهدّج: "لن يرانا أحد كباحثين عن الحقيقة... بل كخونة."

رانيل ضمّت المخطوطة إلى صدرها، نظراتها شاردة لكنها حاسمة. قالت بهدوء يشبه السقوط:

"لهذا... يجب أن نصمت. لا كلمة واحدة. ليس قبل أن نتأكد. إن كانت هذه مجرّد شكوك، فلا بد من إثباتها. لا نملك رفاهية إشعال نار قد تلتهم كل شيء."

نويس تمتم، كأن الكلام يخرج منه رغماً عنه:

"وإن ثبتت... من سيصدّق؟ من يجرؤ حتى على النظر في عيني الكيان بعدها؟ لسنا نتحدث عن أسطورة... بل عن رمز مقدّس منذ قرون."

أجبتُ، وأنا أقاوم ارتجافًا داخليًا:

"لن نُفصح عن شيء. ليس الآن. سنعود للكتب الأخرى، للوثائق التي لم تُقرأ بعد. ربما نجد ما يؤكد... أو ما ينفي."

قالت رانيل، وعيناها ثابتتان:

"نحن لا نبحث عمّا نريد تصديقه... بل عن الحقيقة، كما هي."

ثم أضافت بصرامة:

"حتى ذلك الحين، كل ما قيل هنا... يُدفن في هذا القاع."

نظرت إليهما، وقلت ببطء، كمن يخطّ على جدار داخله:

"ما اكتشفناه اليوم... إن صحّ، فسيُعيد كتابة التاريخ... لا بالحبر، بل بالدم."

مرّت أيامٌ وليالٍ طويلة، كأن الزمن نفسه حُبس معنا في قاع البرج، يسير مترنحًا بين الرفوف المهترئة والمخطوطات المنسية، يجرّ خطاه بين الحبر والرماد.

غصنا في كل سطر، كل هامش، كل خيط عتيق من الكلام، حتى ذابت النصوص في عقولنا، وتحوّلت إلى همسات نردّدها بلا وعي، كأن الوثائق هي من تحفظنا، لا العكس.

لكن شيئًا لم يتغير. الهدوء الذي بدا يومًا ما كصرخة، أصبح الآن جدارًا أبكم. الكلمات صارت مرايا مغبّشة، تعكسنا دون أن تكشف شيئًا.

في الليلة الأخيرة، اجتمعنا حول فوانيس خافتة، وارتجفت ظلالنا على الجدران كما لو كانت تهمس بحقائق لا نجرؤ على نطقها.

في عيني رانيل بريقٌ خافت لم يكن له اسم، وفي صوت نويس سكونٌ يشبه الاستسلام. أما أنا، فكنت أحدّق في السقف الحجري، وأفكر: هل تضحي مدينة بكامل ذاكرتها من أجل طمس حقيقة واحدة؟

ثم، فجأة، قطعت رانيل السكون، بصوت كمن يلقي حجرة في ماء راكد:

"علينا أن نذهب إليه..."

رفعت رأسي ببطء.

نويس لم ينبس، لكن عينيه قالتا كل شيء.

لم نحتج إلى تفسير. كنا نعرف من تقصد: كيان الكهف، الرمز المقدّس، الحارس الأبدي لأوفاليس.

لكن هل هو ذاته؟ هل نجرؤ على مواجهته؟ هل نسأله إن كان هو الجذر السام الذي نبتت منه هذه المدينة؟

لم نكن نملك اليقين، لكننا كنا نملك ما هو أثقل: رغبة لا تهدأ... في الحقيقة، ولو كانت تلك الحقيقة خنجرًا في قلب كل ما آمنا به.

في صباح اليوم التالي، غادرنا البرج، تركنا خلفنا تلك الوثائق الميتة كأنها هياكل من ورق. فالذي نبحث عنه الآن... لا يُقرأ، بل يُواجَه.

هناك، في عمق الظلمة، حيث يسكن الكيان. كلّ خطوة نحو الكهف كانت تخدش شيئًا فينا. لم نكن نعلم ما الذي سنجده، لكن لم يشكّ أحدٌ منا لحظة أننا سنخرج كما دخلنا. هذا ليس طريقًا إلى معرفة... بل إلى خلخلة.

لم يكن الكهف هو ما أرعبني هذه المرّة. الرعب الحقيقي بدأ حين اقتربنا من نهاية الطريق. لا لأننا نجهل ما خلفه، بل لأننا خفنا أن نعرف. أن نحصل على إجابة واحدة... تُسقط كلّ الأسئلة السابقة.

أن يكون الكيان في انتظارنا، لا ليكشف لنا شيئًا، بل ليضعنا أمام أنفسنا... بلا أقنعة، بلا مبررات.

كنتُ أفكر، وأنا أسير، أن هذه اللحظة لا تشبه أيّ لحظة مررنا بها من قبل. نحن لا نسعى لكشف كذبة، بل نقترب من كسر عالم بأكمله.

عالم استراح على حكاية واحدة: أن هناك حارسًا، رمزًا، كيانًا يمنحنا الحماية.

لكن... ماذا لو لم يكن حارسًا؟

ماذا لو لم نكن نحتمي به، بل نُساق من خلاله؟

ماذا لو كنّا نعيش تحت ظلّه، لا بركته؟

طوال هذه القرون، كنّا نرسم صورته بأيدينا المرتجفة، ونسميه "مقدّسًا" فقط لأننا خفنا أن نسميه بشيء آخر.

أفكار كهذه لا يمكن الهروب منها. هي لا تصرخ، لا تلوّح، لكنها تمزّق شيئًا فيك وأنت تنظر إلى الأمام، وتعلم أن اللحظة الفاصلة تقترب.

لحظة النظر في عيني الكيان.

لا أعرف إن كنتُ أريده أن يكون بريئًا... أم مذنبًا. كلّ ما أعرفه، أننا لن نخرج من هذا الكهف بذات الأسماء.

وبينما كنّا نقترب من حيث لا رجعة، مرّت بي صورة آريانا... ليست صورة واضحة، ولا مشهدًا مكتملًا. كانت ومضة فقط، خاطفة كوميض نارٍ بعيدة... وجهها وهي تصرخ باسمي، يدي وهي تمتد ولم تصل، وتلك الحفرة التي ابتلعتني دون استئذان.

لم يكن في تذكّرها ألم، بل ما يشبه الطيف. حنينٌ قصير، ناعم الحواف... لكنه يشقّ طريقه بثقة.

الجدران هنا تعرفنا. نحن الحُرّاس، أبناء الرسائل المختومة، قرّاء النقوش المنسيّة. الذين اعتاد الكيان أن يستدعيهم كلّما اضطربت الأرض، أو هبّت ريح لا تُرى.

كم مرة وقفتُ هنا، يدي ممدودة تتلقّى رقعةً حُفرت عليها الكلمات بنارٍ لا تبرد؟ كم نبوءة وُلدت من هذا الجدار؟ كم مصيرًا تغيّر لأن الكيان شاء أن يكتب؟

لكن اليوم... لا همس لا وميض لا أثر.

قلت، وكأنّ الصمت قد أثقل صدري:

"لم يظهر...كأن الزمن نفسه توقّف ليحدّق معنا، دون أن ينبس."

نويس لم يرفع عينيه عن الصخور، قال ببطء يشبه شفرات السكين:

"ربّما نحن من خرج عن الطقوس. جئنا بقلق، لا بإيمان. نطلب كشفًا لا بركة."

رانيل مرّرت يدها على النقش، كما تُلمَس وجوه الموتى، ثم همست:

"لكنه كان يظهر لنا، نحن الحُرّاس... لم نكن نحتاج ليوم الوميض حتى يتحدّث. كان يعلم متى نحتاجه... وكان يسبقنا أحيانًا، برسالةٍ تظهر قبل أن نسأل."

تبادلتُ النظرات معهما. جميعنا يعرف أن يوم الوميض يقترب. اليوم الذي يتوافد فيه أهل أوفاليس إلى هذا الكهف، حاملين نبات أورفال، يتلون الأدعية القديمة، وتُضاء النيران في تجاويف الجدران.

طقوس لا أحد يعلم كيف بدأت، ولا لماذا وُضعت لكننا اليوم لم نأتِ للتبرّك، بل للمواجهة.

الهواء في الكهف كان جامدًا، كثيفًا كأنه ذاكرة لا تريد أن تُسترجع.

نظرتُ إلى الجدار، وتمتمت:

"سننتظر حتى يوم الوميض... إن لم يظهر، فسنُجبره على ذلك، بأيّ ثمن."

ساد سكون غريب، لكن هذه المرّة، لم يكن الصمت بيننا... بل حولنا. كأنّ الجدران نفسها قد تراجعت خطوةً إلى الوراء.

رانيل هي من كسرت السكون، قالت بنبرة من تسترجع ألمًا قديمًا:

"منذ بدأت شجرة أوفاليس تذبل... لم يظهر. قبلها، كانت رسائله لا تنقطع، مرتين في السنة على الأقل."

أومأت... نعم، أتذكّر.

كان حضوره مقرونًا بحياة الشجرة، وكان صمته منذ ذبولها مريبًا...

تابعت رانيل، صوتها مزيج من يقينٍ وحذر:

"ثم اختفى مجددًا... حتى تلك اللحظة، حين أحضرناها معنا... آريانا."

خفضتُ رأسي، تذكّرتُ ذلك اليوم جيّدًا ...ظهر، بلا رسالة، بلا أثر، بلا وميض. مجرّد حضور خاطف... ثم اختفى. كأنّه لم يكن يظهر لنا، بل لها.

نويس ضرب الجدار بنظره كأنّ عينيه تحفران فيه، ثم قال:

"وكيف له أن يظهر لها... فتاة غريبة لا نعرف عنها شيئًا، ولا يظهر لنا، نحن الحُرّاس؟!"

ارتدّ صدى صوته عن الصخور بحدّة، لكنه سرعان ما خفت، كأنّ ما قاله أفزعه.

تمتم: "إلا إذا...كانت لها صلة أعمق مما نتصوّر."

نظرتُ إليهما – رانيل تراجعت خطوة، كأنّ ريحًا باردة صدمتها، ونويس أدار وجهه عني.

ضحكتُ بخفوت، ضحكة لا تهزأ... بل تنزف. حدثتُ نفسي، لكن الصوت في صدري كان يصرخ: "من البداية قلتُ هذا... لكنكم لم تصدقوني."

رفعتُ رأسي نحو الفتحة التي اعتدنا أن ينبثق منها وميضه الأزرق حين يتجسّد. الآن...لا شيء. فقط صدًى بعيد... قد لا يسكن الحجارة، بل قلوبنا.

***

"بعض الأيام لا تبدأ بالضوء... بل بانتظاره."

كان صباح يوم الوميض مختلفًا عن أيّ صباحٍ مرّ علينا. السماء لم تكن رمادية كما اعتدنا في الشتاء، بل بلونٍ متقلّب بين الأزرق والفضي، كأنها تحبس أنفاسها.

وأحسست، لأوّل مرة، أن الأرض ترتجف، ترتّب ترابها، وتتهيّأ لاستقبال الكيان... رغم علمنا أنه لن يظهر.

لم أُبح بمخاوفي لأحد. كيف أقول إنني لا أشعر بشيء؟ ومع ذلك... اليوم بدأ.

الأهالي تهيّأوا كما كلّ عام، بنفس الإيمان، بنفس التراتيل، كأنّ الشكّ لم يطرق أبوابهم بعد.

كانت أوفاليس غارقة في قداسةٍ صامتة.

رائحة أورفال البنفسجية تملأ الهواء – تلك النبتة التي لا تزهر إلا ليلة الوميض، يطحنون أوراقها ويذرّونها في الممرّات، فتفوح منها رائحة تشبه الحبر والعسل والرماد.

النساء نثرنها على جباه الأطفال، والرجال ارتدوا عباءاتهم البيضاء ذات الحواف الفضية. أما الفتيات، فركضن حفاة فوق التربة المبللة، كأنّ رقصهنّ دعاء يوقظ روح الكهف القديمة.

كنّا نحن – أنا، رانيل، ونويس – واقفين عند فوهة الكهف. خلفنا الشموع، أمامنا الحشود، وبيننا وبينهم آلاف التراتيل.

بدأت الطقوس.

التراتيل انسابت من الحناجر كضوءٍ خافت، تدور حول الأعمدة الحجرية، ترتفع، ثم تهبط، لتُحنَى فوق الرؤوس.

هكذا يُستدعى الكيان. وهكذا دومًا...كان يأتي. لكن ليس هذه المرّة.

كلّ من في الكهف شعر أن الوميض تأخّر ...أن البركة لم تهبط ...وأنّ ما كنّا نخشاه بدأ يحدث.

وقبل أن نهمس بالحقيقة... دوّى الصراخ ثم وقع الأقدام ثم الأبواق. لكنها لم تكن أصوات دخول... بل اقتحام.

جنود دومالیس اندفعوا إلى الكهف كطعنة، كأن الأرض لفظتهم غضبًا. دروعهم سوداء لامعة، سيوفهم مسلولة، عيونهم لا تنطفئ. خطواتهم تهزّ التربة، والنذر يسبقهم كظلٍّ سابقٍ للدم.

الناس تراجعوا، العجائز جذبوا الأطفال إلى صدورهم، النساء التصقن بالجدران، والرجال...خفضوا رؤوسهم.

لم تدخل دومالیس لتشارك... بل لتحاسب.

تقدّم منهم رجل مهيب، درعه أوسع من كتفيه، خوذته لا تكشف إلا شقّين كسيفين متقاطعين. رفع درعه الذي يحمل ختم كاثرينا، ثم نظر نحونا. صوته لم يكن مجرّد صوت... بل كان حُكمًا يُعلَن:

"باسم عهد الأرض الكبرى، وباسم الدم الذي سال في ساحة العهد، نعلن أن أوفاليس... قد خانت."

صُعقت الجدران بالهمهمات.

"ما أخفيتموه منذ أجيال... أزهر لعنة. أسراركم، طقوسكم، صمتكم... كلّها كانت خيانة مغلّفة بالإيمان. والآن، شجرة دومالیس تذبل...كما ذبلت شجرتكم. اللعنة تتحرك، الأرض تتكلم، واللعنة... لا تبقى في مكانٍ واحد."

لم يفهم أحد.

الاتهام كان أكبر من الطقس... وأكبر من الكيان. كان يتحدّث عن إرث... عن جريمة دُفنت في صمت حتى تعفّنت وانفجرت.

رانيل نظرت إليّ وقد شحب لونها، ونويس صرخ: "لكن شجرتنا فقط...!"

لكن الجنود لم يتركوا لنا مجالًا للكلام.

تقدّموا نحونا، ببطءٍ قاتل وثباتٍ مخيف، وقيدونا أمام الجميع.

"أنتم تمثّلون الحُرّاس... وأنتم ستُحاسبون. لن تُستدعى الأرواح اليوم... بل سيُستدعى الحق."

اقتادونا خارج الكهف، والتراتيل خلفنا ما تزال تتردّد في الهواء... ناقصة، مكسورة، كسورةٍ بلا ختام.

(٦)

ظننتُ أنني قرّرت. عندما خطوتُ نحو النور الأبيض... نحو بيتٍ افتقدته... ظننتُ أنني عدت. رائحة الياسمين كانت كافية لتقودني، حتى شعرتُ بها تملأ صدري، كأنني أخيرًا أتنفّس دون خوف.

لكني... لم أتحرّك بعدها. قدماي تجمّدتا عند العتبة. كنت أسمع دقّات قلبي، أو ربما دقّات القلادة... لا أدري.

ووسط كل هذا الحنين، وسط كلّ ما تمنّيته، تسرّب وجهه إلى ذهني — كيران. تذكّرتُ صوته وهو يقول إنه يثق بي، يمدّ يده نحوي قبل أن يسقط في الكهف... ظلال الأطفال في أوفاليس، أجسادهم النحيلة، عيونهم التي لا تبتسم، أصواتهم التي بدأت تختفي.

تذكّرتُ أنني رأيت النور يذبل. تذكّرتُ أنني وعدت... حتى لو لم أقلها بصوتٍ عالٍ.

وقفتُ هناك، بين بابين... وشيء بداخلي تمزّق. كنت أريد العودة، حقًا أردت... لكن الأمان لم يَعُد بيتي.

ولأوّل مرة... شعرتُ أنني أنتمي لهذا العالم الغريب، هذا العالم المكسور، فقط لأن أحدًا فيه يحتاجني.

رجعت. بخطوة واحدة، خرجتُ من الضوء الأبيض، وببطء... اختفى.

ورائي، لم يكن هناك شيء. وأمامي... كلّ شيء ينتظر أن أبدأ.

عادت الغرفة إلى الظلام الأزرق، لكن شيئًا فيها تغيّر. كأنها شهقت بصمت، أدركت أنني اخترت.

عندها... نبضت القلادة. ليس ضوءًا، بل نبض. كأنّ قلبًا قديمًا عاد إلى الحياة فيها. ثم جاء الصوت. لم يأتِ من جدار، ولا من أعلى... بل من الداخل، من مكان لا يُسمّى.

"ما من أحد يختار أن يبقى... إلا وفي قلبه جرح لا يُشفى، أو أمل لا يموت."

تلفّتُّ حولي، كأنّ روحي صارت سمعي.

"أعرفكِ يا آريانا. ليس لأنكِ ترتدين القلادة، بل لأنك الوحيدة التي مشت خطوتين نحو الباب... ثم عادت."

صوتها كان أكبر من الزمن، أثقل من الصدى، يشبه الندم... أو الحنين حين يصبح حجارة.

"الذين يهربون لا يُلامون... لكن الذين يعودون، هم الذين يصنعون الحكايات التي لا تُنسى."

لم أعد أشعر بقدميّ. سألتُ بصوت طفلة وجدت شيئًا ضائعًا: "من أنتِ...؟"

سكتت لحظة، كأنها تبحث عن طريقة لتقول شيئًا دون أن تكسره:

"أنا من بقيت حين رحل الجميع."

"أنا من خبّأت صرختها في حجر."

"أنا من لم تجد سبيلاً للخلاص، سوى أن تُنسى."

بدأت جدران الغرفة تضيء من دون مصدر، كأن الذكريات قرّرت أن تتكلم.

"ما سأقوله لن يُفهَم دفعة واحدة... وما لن أقوله، هو ما يهمّكِ أكثر."

"لكنني سأقول هذا فقط...حين اخترتِ البقاء، لم تُنقذي كاثرينا وحدها... بل أنقذتِني أنا."

ثم عمّ الصمت، لكنه لم يكن صمتًا عاديًا... بل صمتًا يُمهّد لشيءٍ أكبر.

شعرتُ حينها أنني لم أعد فقط فتاة ضائعة... بل أصبحت جزءًا من سرٍّ قديم، قلبه ينبض فوق صدري.

"لقد اخترتِ. وبما أنكِ اخترتِ أن تبقي وتساعدي، فلكِ الحق أن تعرفي. لكن... ليست كلّ الحقائق تُروى."

هنا بدأ الهواء في الغرفة يثقل، كأن شيئًا قديمًا استُدعي، شيء أقدم من المرايا، من القلادة... مني.

"بعض الحقائق، يا آريانا، لا يجب أن تُقال... بل تُرى. تُشاهَد كما حدثت، بلا رواة، بلا زخرفة، بلا تحريف... ولا دنس."

ارتجفت يدَيّ.

"ستغوصين. لن يراكِ أحد. ولن تُؤثّري في شيء. ستكونين ظلًّا عابرًا في أعماق زمنٍ نسيه الجميع... إلا أنا."

شعرتُ بقلبي يقرع صدري كطبول قبيلة على وشك الحرب.

"فقط قولي... هل أنتِ مستعدّة؟ أن تنظري في قلب ما مضى، وتحملي الحقيقة كما هي؟"

الغرفة أصبحت معتمة. ثم بدأ النور يتجمّع حول القلادة... يدور ببطء كدوّامة. أغمضتُ عيني. تنفّستُ ببطء. ثم همست: "أنا مستعدّة."

لم أدرك أنني كنت أهبط... لا، بل كنت أنزلق بين طبقات من الضوء والفراغ، كأنني أعبر ستارًا بين زمنين. ثم فجأة، وقفت. وأمام عيني انكشف عالم لم أعرفه من قبل... كاثرينا.

لقد عشتُ في أوفاليس، نعم... رأيتُ شوارعها، لمستُ حجارتها، لكنني الآن رأيتُ ما لم يكن يُرى... الأرض كلّها.

في زمنٍ آخر، حيث كلّ شيء نابض وأصيل، بلا تشويه أو خديعة. رأيتُ المدن الخمس، كما لم تُرَ من قبل:

أوفاليس، كما عرفتها، لكنها كانت أعظم، مشعّة، شامخة، مهيبة... كأنها مدينة من نورٍ صلب.

دومماليس، الغامضة، تسبح وسط ضبابٍ أزرق كالحلم، يخفي أسرارها ولا يخنقها.

ميرابيليس، ناعمة، فاتنة، كأنها سحر خالص، مبانيها تنساب كأنها من نسيم.

لينفارا، المدينة المرتفعة، كأنها تطلّ من فوق غيمة، رقاب أبراجها تطعن السماء.

سيرافينا، مدينة الماء والحدود الرقيقة... شعرتُ كأنها تنام، لا تموت.

كلّ مدينة كانت لها شجرة نور ضخمة تتوسّطها كقلبٍ حيّ... تنبض، تشعّ، تتنفس. لكن ما أذهلني أكثر من كلّ شيء... تلك الجذور التي لا تُرى بالعين، لكنها تُحَسّ.

كنت أعلم أن لأوفاليس شجرتها، لكنني لم أكن أعلم أن هذه الأشجار الخمس متّصلة... كأنها شبكة حياة واحدة، تخترق الأرض بعمق، وتشترك في روحٍ واحدة. وقفتُ هناك، مأخوذة، مذهولة، هامسة: "إنها لا تشبه الأشجار... بل أرواح ساكنة، نُسج منها هذا العالم."

وفي تلك اللحظة، فهمتُ أن كاثرينا لم تكن فقط أرضًا... كانت كيانًا حيًّا، روحًا عملاقة، تتنفس من خلال تلك الأشجار... وتتألم إذا اقتُلعت واحدة.

ثم رأيته... هناك، في أعلى نقطة قصر "فيلوران" يتربع كأنه نُحت من ضوءٍ صلب. جدرانه مصقولة كالمرايا، تتلألأ كلما لامستها أشعة الشروق، وأبراجه تعانق السحاب، كأنها تحرس السماء نفسها. بواباته من ذهبٍ قديم، ونوافذه تُطل على ما لا يُرى. ذاك هو القصر الذي تسكنه الحاكمة الكبرى... امرأة خالدة، لا تشيخ

ولا تنكسر، حكمت كاثرينا منذ الأزل، ومنذ البداية لم يُذكر قبلها حاكم، ولا عرف الناس بعدها وريثًا. لكن حتى الخلود... لا يسلم من الخيانة.

رأيت الكيان الغريب هناك، واقفًا خلف الحاكمة بصمتٍ مهيب، كخادمٍ مخلص أخلص فوق الحد. كان ظلًا لا يُعرف له وجه، وحارسًا للطاقة، يراقب أشجار النور، ويهتم بتوازن الأرواح. لم يكن بشريًا، ولم يكن إلهًا. وُلد مع الحاكمة ذاتها، ونما معها، خدمها بصمت طويل، ولم يُخطئ يومًا... حتى أخطأ.

لقد وقع في حب شجرة نور "ميرابليس"، وصار يتردد إليها كثيرًا، يسقيها من نوره، يهتم بها أكثر من سائر الأشجار.

وحين بدأ التوازن يختل، استدعته الحاكمة بنفسها... كان الهواء ثقيلاً، والسماء صامتة، بينما وقفت هي وسط القاعة الكبرى، شامخة كأنها قدر.

قالت له، وصوتها كصفحة ماءٍ تُقطع بحجر: "لقد خنتني."

فأجاب بصوت خافت، يشبه الريح قبل العاصفة: "أحببتُ ما لم يُكتب لي، نعم... لكني لم أخنك."

فخطت نحوه، وخلفها النور يشتعل: "أخللت بتوازن الأرض. أسقيتها من ذاتك، وتجاهلت الحُكم، وكأن قلبك أقوى من القانون. أتدري ما صنعت؟"

فانحنى، ولم يبرر شيئًا. قال بهدوء من يحمل مصيره في راحته: "إن كان العقاب ثمناً للحب... فليكن. سأدفعه بقبول."

لكن العقاب لم يكن عاديًا. لقد كان نفيًا مؤبدًا. نُفي إلى "أوفاليس"، ووُضع في كهف مظلم، عميق في باطنها، بعيدًا عن جذوع النور وضوء السماء.

ومرت الأعوام... والناس هناك لم يعرفوا سبب نفيه. ومع الوقت، لم يروه منفيًا، بل قدّسوه، وباركوا حضوره، ونسجوا حوله الطقوس والتراتيل. هكذا، تحوّل الكيان من مُعاقَب إلى رمز... ومن رمز إلى "حامٍ" لأوفاليس.

أما هو، فكان هناك... صامتًا، ينتظر.

وفي الخفاء، كان الحكماء في أوفاليس يطمعون بما لا يُقال. لم يريدوا فقط الشرف أو القوة، بل أرادوا أن تنقطع الجذور، أن تتحرر شجرتهم من قيد الحاكمة، ليحكموا الأرض كما يشاؤون، بلا خضوع، بلا جذور تربطهم بقصر فيلوران.

خططوا لذلك في صمت، وفي ليلة الوميض، حين فُتحت بوابات الطاقة، ارتكبوا الخيانة. قطعوا جذر شجرة أوفاليس في لحظة اقترانها بالحاكمة... ثم اغتالوا الحاكمة. أو هكذا ظنّوا.

لكنهم لم يعلموا أن الحاكمة لم تمت تمامًا. لقد انفصلت روحها عن جسدها، تاهت، صارت ضعيفة عاجزة عن العودة. وهنا... تحرك الكيان. راقب اللحظة، انتظرها طويلاً — لحظة انكسار الخيط بين الحاكمة والأرض.

وفي ظلامٍ عميق، وبسحرٍ قديم، حبس روحها داخل قلادة، وألقى بها في عالم آخر، بعيد كل البعد عن كاثرينا. عالم لا يسمع فيه أحد صوتها، ولا يشعر بها أحد. بدت القلادة وكأنها مجرد أثر ميت... لكنها كانت تشبه تمامًا قلادتي. وهنا فقط... بدأت أفهم.

وبعد أيام، رأيت الصدمة على وجوههم. سكان أوفاليس نظروا إلى شجرتهم وهي تذبل أمام أعينهم، رأوا الهواء يتكثف كالغيوم، والشمس تخنق السماء، وأجسادهم تضعف وتنهار. لم يفهم أحد ما كان يحدث... إلا أولئك الذين تسببوا به. فهموا، متأخرين، أن ما قتلوه كان أعظم من روح الحاكمة، وأن الجذور إن انقطعت... انقطعت الحياة معها.

فبدؤوا يبحثون عن حلّ، قبل أن ينكشف أمرهم. وأخيرًا، وجدوا طقسًا قديمًا في كتابٍ لا يخص أرضهم، يتحدث عن كيان يُستحضر ليعيد النور فلم يترددوا.

وبينما كان الناس يبكون ضياع النور، ظهر الكيان من كهفه... لمن استدعاه لا كرمز، بل كمنقذ وهم لا يدرون أنهم وقعوا في قبضته.

قال لهم بصوتٍ يشبه صوت الشجر حين يتكسر: "أعيد لكم النور، لكن لا تسألوا عن المقابل، لا تُظهروا الحقيقة، ولا تنظروا خلفكم."

فصدقوه ووقعوا معه العهد وازدهرت الشجرة، وعاد الضوء إلى أوفاليس. ورقص الناس مرة أخرى في طقوس الوميض. لكن ما عاد... لم يكن النور ذاته. كان ظلاً مستنسخًا... طاقة مزيّفة... عمرها قصير.

وفي لحظة احتفالهم، رأيت الكيان يسحب من الشجرة قوتها الحقيقية، يحصد جذورها واحدة تلو الأخرى. لم يكن يريد أوفاليس فقط، بل كان يخطط للسيطرة على "ميرابليس"، "سيرافينا"، "لينفارا"، وعلى "دومواليس" التي كانت تراقب في صمت.

وعندما يُسيطر على الأشجار الخمس، ويُخضع النبض كلّه تحت سلطته، لن يكون مجرد كيان... بل سيكون الحاكم الجديد لكاثرينا، يصنع قوانينه بيده، ويعيد تشكيل العالم على صورته.

وحين شعر الحكماء بأن ما عاد إلى أوفاليس لم يكن سوى ظلٍ مستنسخ، فهموا أن ما جنوه كان لعنة، لا خلاصًا. لم يستطيعوا مواجهته، ولا حتى فضح أمرهم أمام الملأ. كان الكيان أقوى مما توقعوا... وكان ذنبهم أعمق من أن يُغتفر.

فقرروا دفن الحقيقة معهم. تحت برجٍ، هبطوا إلى قاعٍ سحيق، وخبّأوا هناك بقايا نصوص مهشّمة، قطعًا من عهدهم مع الكيان، لكنهم حرصوا على أن تكون ناقصة... مشوهة... لا تروي إلا نصف الحكاية، ولا تكشف إلا ما يُبقيهم في مأمن من الفضيحة.

ونسجوا عن ذلك البرج أساطير ولعنات حتى صار قديما، مهجورا، لا تطأه قدم، ولا تسمع فيه روح، أخفوها حيث لا يمكن لعين أن تراها، ولا لذاكرة أن تسترجعها، وكأنهم دفنوا ذنبهم في جوف الأرض... على أمل ألا ينبشه أحد.

لكنني كنت أعلم... أن القصة لم تنتهِ هناك. فبعض الأرواح ما زالت تتنفس الحقيقة... وما دامت القلادة موجودة، فثمة طريق... للعودة.

حين انغلق المشهد، شعرت كأن الهواء من حولي تغيّر... الأرض ذاتها تنفّست بطريقة مختلفة. كان كل شيء يعود بي إلى الحاضر، ببطء، بثقلٍ في قلبي، لكن بخفّة في روحي... وكأنني خرجت من سردابٍ مظلم أحمل بين يديّ مفاتيح الضوء."

تلك الرحلة عبر الماضي... لم تكن مجرد رؤية. كانت الحقيقة عارية، دامغة، لا جدال فيها. كل سؤال كنت أطرحه في داخلي، كل لغز أربكني... فجأة، لم يعد غامضًا.

نظري سقط على القلادة المعلّقة على صدري "هي... هي البداية. وهي الجواب منذ اللحظة التي وجدتها فيه، كل شيء تغيّر. لم أكن أعلم أنها ليست مجرد أثر ضائع من زمن آخر... لم أكن أعلم أنها سجن، سجن لروحٍ لا تموت؛ روح الحاكمة.

ذلك الصوت الذي كان يهمس لي... يوقظني حين أضعف، يوجّهني حين أضيع... لم يكن صوتًا في رأسي. كان صوت امرأة حيّة، تصرخ من داخل حجرٍ صغير، من داخل سجنٍ خفي... تحترق لتُسمَع، تتوسل أن أراها.

هي من كلّمتني في غرفة المرايا. هي من نقلتني إلى الماضي. لقد كانت هي تستخدم ما تبقى لها من قوة، عبري. أنا لم أكن المُختارة فقط... كنت البوابة.

والآن... كل شيء يبدو واضحًا. ذلك الكيان، نظراته نحوي لم تكن موجهة لي... بل كانت تخترقني، تبحث خلف عينيّ، عن صدى يعرفه. عن روح يعرفها، عن روح الحاكمة حتى ذلك الهمس في الغابة، حين قيل لي: لقد عادت... لم يكن يعني أنني أنا عدت... بل أن الحاكمة عادت، وإن كانت في جسدٍ ليس جسدها.

يا إلهي... لقد كنت أسير بخطى امرأةٍ أخرى، أسمع نبضها في صدري، وأحمل ماضيها في قلادةٍ لا يعلم أحد حقيقتها.

أشعر وكأنني وجدت مفتاحًا لبابٍ ظننته جدارًا. بابٌ إذا فتحته... لن أعود كما كنت. لم أعد أسمع صوتها فقط... بل شعرت بها داخلي، كما لو أن القلادة التي على صدري تحوّلت إلى نبض حيّ... لا ينبض بالدم، بل بنداء.

وقفتُ هناك، لا أملك سوى الإنصات، وكل جزءٍ فيّ كان يصغي... كما لو أن الأرض نفسها صمتت لتسمع. ثم جاء صوتها... عميق، واثق، خالد صوت لا يشبه أحدًا... ولا يُنسى.

"لا تحني رأسكِ، يا من اختارتها الأرض... فالأرض لا تختار من ينكسر."

تسمرتُ... لم أجرؤ على الرد. لكنني فهمت فهمت أنها ليست مجرد طيف... ليست خيالًا

"أنا لست ذكرى، ولا ظلًا، أنا ما تبقى... من عهدٍ لم يُكسر بعد وأنتِ لم تجدي القلادة... بل القلادة هي من وجدتك."

ثم سكتت... ولوهلة، شعرت أن الوقت انحنى حولي، أن الهواء توقف ليمهّد لجملةٍ لا تشبه أي جملة سمعتها في حياتي.

جملة سُكِبت في قلبي مثل وعد... مثل نبوءة بدأت تنبض في دمي: "الرحلة... بدأت الآن."

كان قلبي يغلي، لا من الخوف... بل من الغضب، من كل ما حدث، من كل ما سُرق من هذه الأرض.

نظرتُ إلى القلادة التي لا تزال تنبض بحرارة غريبة فوق صدري... كأنها تتفاعل مع هذا الغليان بداخلي. كان عليّ أن أتكلم، أن أواجه، فخرج صوتي، هادئًا لكن مشحونًا:

"كيف نُوقفه؟ كيف نعيد ما سُرق؟"

لم أتوقع أن يأتي الجواب فورًا، لكنه جاء... بصوتها. ذلك الصوت العميق، الواثق، الذي كان يأتيني من القلادة... لم يكن صوتًا عاديًا، بل طيفًا من وقارٍ خالد، كأن الزمان كله يتحدث إليّ:

"هنالك خطة... لكل شيء. لكننا نحتاج أن نسير خطوة بخطوة، وفي التوقيت الصحيح."

رفعت رأسي، وكأنني أُمسك بالخيط الأول من الحقيقة:

"وأي خطوة أبدأ بها؟ ما الذي أفعله؟"

خف صوتها قليلًا، لكنها لم تفقد ذلك الثبات المهيب:

"مهمة أولى تنتظرك. بسيطة في الظاهر... لكنها الأساس. عليكِ إنقاذ الحُرّاس."

اتسعت عيناي بدهشة... الحُرّاس؟ تمتمتُ كمن يسترجع ذكرى:

"لكن... أين هم؟ ما الذي جرى؟"

أجابتني بصوت حمل شيئًا من الألم... ومن العزم:

"في السجن. اتُّهِموا بالخيانة... زُجّ بهم بعيدًا عن نور الحقيقة، لأنهم اقتربوا منها كثيرًا."

سادت لحظة صمت، كأن قلبي كان يحاول استيعاب ما سمعه... ثم همستُ، لا لنفسي فقط، بل لها أيضًا: "لكن لماذا؟ ماذا فعلوا؟"

ردّت بصوت بدا كأنه يتلو قَدَرًا كُتب منذ زمن:

"ستعرفين الحقيقة عندما تلتقينهم. لا وقت للشرح... لأن القادم أعظم."

ثم أضافت، بصوت غمرني بقشعريرة: "هذه الرحلة... تتطلب فريقًا. طاقات متعددة، وقلوبًا صادقة... يجب أن تجتمعوا، أن تقاتلوا، أن تُنقذوا هذه الأرض."

وقفت وسط الغرفة، يداي ترتجفان قليلًا، لا من الضعف... بل من عِظَم المسؤولية. كنت أظن أنني مجرد فتاة ضائعة بين العوالم... والآن، يُطلب مني إنقاذ من تبقّى من فرسان النور.

كان قلبي لا يزال يغلي... لكن هذه المرة، الغليان تحوّل إلى عزم.

***

لم أكن أتوقع أن أذهب إلى مدينة دومالیس بهذه السرعة... ولم أتخيل يومًا أن أدخلها متسللة نحو أحد أكثر سجونها تحصينًا. كنت خائفة، لكنني لم أعد أملك رفاهية الخوف.

صوت الحاكمة كان لا يزال يرافقني، يوجّهني همسًا، كأن صدى قديم ينبعث من قلادتي:

"آريانا... الحُرّاس محتجزون هنا. لن تكتمل الخطوة التالية دونهم."

توقفتُ عند التلّ الحجري خلف السجن. كان المكان خاليًا من الحراسة في هذا الوقت من الليل، لكن الهواء كان ثقيلًا... كأن المدينة تشعر بي.

ركعتُ بين الأعشاب الجافة. نظرتُ إلى الجدار الحجري القديم، ثم وضعت يدي على الأرض.

شعرت بنبض. نعم، نبض حقيقي... كأن الأرض تتنفس.

"تحت السجن، هناك نفق قديم... بوابة من زمن بعيد. لا تُفتح إلا لمن يعرف طريق النور."

لم أفهم ما تقصده الحاكمة... لكن القلادة بدأت تلمع. وبدون تفكير، تبعتها.

كل خطوة كنت أقطعها نحو الصخور، كان قلبي ينبض بقوة أكبر. عينيّ تحاولان اختراق الظلام، لكن صوت الحاكمة هدّأني:

"ثقي بما فيكِ، لا بما حولكِ."

لمستُ إحدى الصخور، وظهرت نقوش لم أرها من قبل. بلغة غريبة، لكنها مفهومة داخليًا، كأن الذاكرة تتكلم. تمتمتُ بها... وبدأت الصخور ترتج.

أرضية التلّ انشقت بهدوء... وظهرت أمامي فتحة ضيقة، ينزل منها سُلّم حجري...نزلتُ. كل شيء في داخلي كان يصرخ بي أن أعود، لكنني كنت أعلم أن رانيل، نويس... ينتظران.

داخل ذلك الممر الحجري، كان الهواء أكثر برودة، ورائحة العفن تغطي المكان. تقدّمت ببطء... حتى رأيت تمثالًا قديمًا، دون رأس، وفي قلبه تجويف دائري. بدا مألوفًا... كأنه ينتظر شيئًا.

اقتربت منه من دون أن أفكر، وبمجرد أن لامست الحجر، أضاء المكان كله بضوء أزرق... وانفتح جدار حجري.

ما إن انفتح ذلك الجدار، حتى وجدت نفسي داخل دهليز ضيق يقود إلى ما بدا لي وكأنه باطن السجن.

كان السجن أعمق مما تخيلته. الممرات ضيقة، الجدران مشققة، وبرودة الهواء... كل شيء يوحي بأن النسيان هنا كان مقصودًا.

كنت أتحرك بهدوء، أراقب، وأحسب خطواتي بدقة. لكن فجأة، سمعت وقع أقدام قادمة من الزاوية المقابلة. أضواء مشاعل تقترب، وأصوات رجال.

انسحبت سريعًا خلف عمود حجري مكسوّ بالطحالب، وأمسكت أنفاسي.

"أخبرتك أن نوبة الحراسة هذه أسوأ من السابقة."

"لمَ نُرسل في دوريات هنا أصلًا؟ لا يجرؤ أحد على الاقتراب سوى القائد. لنأخذ استراحة."

مرت خطواتهم بالقرب مني، دون أن يشعروا بوجودي. ظللت مختبئة حتى اختفى صوتهم تمامًا. تنفّست ببطء، ثم تابعت السير.

بعد ممرين، وصلت إلى صفّ الزنزانات. كانت العيون المنطفئة خلف القضبان تنظر بحذر، أو بلا مبالاة، لكنني حين اقتربت أكثر، سمعت صوتًا مألوفًا: "آريانا؟!"

التفتُّ بسرعة...كانت رانيل. لقد شعرت بوجودي دون أن تراني، فهي ترى ما لا يراه الجميع.

"رانيل!" همستُ بقوة وأنا أقترب. كان وجهها شاحبًا، لكنها ابتسمت ابتسامة حقيقية، اختلط فيها الضعف بالشجاعة.

"أنتِ هنا! ظننتُ أننا فقدنا كل شيء."

ظهر نويس خلفها، عيناه ثابتتان كعادته:

"لم أتخيل يومًا أني سأفرح لرؤيتك..." ثم صمت لحظة، وأشار نحو الزنزانة المجاورة:

"هل ترين من هناك؟"

نظرتُ فتجمّد جسدي للحظة... كيران واقف داخل الزنزانة، يضع يده على الجدار وكأنه يحاول استراق السمع لما يدور خارجها.

"كيران؟" همستُ، أقفز من مكاني. أمسكتُ القضبان وحدّقتُ فيه.

"كيران... أنت حي؟! لكن... ظننت أنك..."

استدار ببطء، وحين رآني، بدت الدهشة على وجهه... ثم انفجرت ابتسامة ناعمة على شفتيه:

"آريانا؟! إنها حقًا أنتِ؟"

قلتُ وقلبي يكاد يطير من الفرحة:

"ظننتك مت! رأيتك تنهار في ذلك الكهف!"

ضحك وهو يقترب من القضبان:

"يبدو أن الموت ليس سهلًا كما نتخيّل."

ابتسمت، ومددتُ يدي نحو القضبان، وكأن لمسة صغيرة منه ستثبت لي أن هذه اللحظة حقيقية.

لكن لم يكن الوقت مناسبًا للدهشة. الهمس وحده كان مسموحًا، والخوف يتسلل على أطراف أصابعنا.

انحنيت أمام القفل القديم، وتنفّست ببطء.

همس نويس من خلف القضبان، صوته مبحوح لكنه ثابت:

"أرجو أن يكون معكِ مفتاح."

نظرتُ إليه وابتسمت ابتسامة باهتة: "في الحقيقة... لا."

تبادل النظرات مع رانيل، ثم عاد إليّ: "إذًا؟"

أخرجتُ دبوس الشعر من خصلات شعري المبعثرة، رفعته بين أصابعي كأنه سلاح خفي، وقلت:

"شاهدت فيلمًا قديمًا، كانت البطلة عالقة خلف باب حديدي... واستعملت دبوس شعرها لتفتحه. ضحكتُ يومها... لكن من يدري؟"

نظر إليّ باستغراب، حاجبه مرفوع: "فيلم؟ ما هو الفيلم؟"

ابتسمتُ رغم التوتر: "قصة تُروى عبر صور متحركة... لا يهم الآن، فقط... صدقني."

ساد صمت لثانية. ثم قال، بنبرة خافتة:

"لا أفهم ما تعنين... لكني سأثق بكِ... لأوّل مرة."

أحسستُ بشيء يتحرك داخلي... ليس مجرد خيط أمل.

انحنيتُ نحو القفل الأول، أدخلتُ الدبوس بلطف وبدأت بتحريكه. تنفّست ببطء، ثم...طقطقة...

حين وقفتُ أمامهم أخيرًا، نظرتُ إليهم وقلت، وصوتي يرتجف لكنه صادق:

"قد لا نملك كل المفاتيح، لكننا نملك شيئًا أثمن... الجرأة على المحاولة."

لم يكن هناك وقت للتفكير، ولا مساحة للخطأ. نظرت إليهم وقلت بهمسة صارمة:

"سنسلك نفس الطريق الذي دخلتُ منه. حافظوا على صمتكم... واتبعوني."

الممرات التي بدت لي طويلة وخانقة حين تسللت، أصبحت الآن أضيق وأقصر من أن تحتوي توترنا. خطواتنا كانت خفيفة، كأننا نسير على أطراف أحلامنا. لم نتحدث. كل نفس كأنه صرخة خافتة نخشى أن يسمعها أحد.

وحين خرجنا... لم نلتفت، لم نركض، بل سرنا بخطوات ثابتة، متسارعة... متفاهمين بلا كلمات.

كان الاتفاق واضحًا منذ اللحظة التي فتحتُ فيها القفل: الغابة المحرّمة. هناك فقط، لن تصلنا أعين دومواليس ولا أيدي من باعوا الحقيقة.

عندما دخلنا حدودها، وتسللت أنفاسنا بين الأشجار، التفت كيران إليّ لأول مرة، ونظر إلى عينيّ.

لم تكن تلك النظرة ثقيلة ولا دامعة، بل هادئة، عميقة... فيها امتنان خفيّ، ودهشة نقية، وشيء يشبه السلام بعد عاصفة.

ثم ابتسم بخفة. ابتسامة صغيرة... لكنها كانت كافية لتخبرني أنه هنا، أنه بخير، وأن ما مضى... لم يكسره.

لم أتوقّع يومًا أن تُخبئ هذه الغابة شيئًا كهذا. كنتُ أظن أنني رأيتُ منها كلّ شيء: الأشجار المتشابكة، الطرق الضيّقة، وحتى تلك الزوايا التي يتسلّل منها الخوف بهدوء.

لكن حين قادني الحُرّاس إلى هذا المكان، شعرتُ كأنني عبرتُ بوابة لا تراها العين، إلى ركنٍ بعيد عن العالم.

كان كل شيء مختلفًا. الأغصان تلتفّ فوقنا مثل قباب، تصنع لنا سقفًا طبيعيًا يحمينا، والأرض تحت أقدامنا مغطّاة بأوراق خفيفة، جافة، لكنها ناعمة، وكأنها فُرشت خصيصًا لنا.

الهواء هنا لا يشبه الهواء في الخارج... لا أقول إنه أكثر هدوءًا، فقد تعبتُ من هذه الكلمة، لكنه بدا أنقى، كأن الأشجار نفسها تتنفّس معنا.

ابتسمتُ رغم كل شيء. هذا ليس مجرّد ملجأ... إنه أشبه باستراحة مؤقتة من الألم، من التفكير، من كلّ ما ينتظرنا غدًا.

مكانٌ لا يسمع سوى خطواتنا وهمساتنا الداخلية. وكنتُ أحتاجه... نحن جميعًا كنّا نحتاجه.

لم يكن هناك قرار أو اتفاق... فقط، غلبنا النعاس الواحد تلو الآخر، كما لو أن أجسادنا قرّرت أن تتوقّف قبل أن نطلب منها ذلك.

لم يكن النوم هادئًا، لكنه كان ضروريًا. حتى الخوف، حتى الأسئلة، وحتى كلّ ما نحمله... سكن قليلًا، وتركنا نستسلم دون مقاومة.

في تلك الليلة، كان الصمت هو كلّ ما نملك... وصار النوم هو الحكاية المؤجّلة حتى إشعار آخر.

استيقظنا على ضوءٍ خافت تسلّل بين الأغصان. أجسادنا مرهقة، وملامحنا مثقلة بما لم يُقال. كنتُ أجلس بالقرب من النار التي خمد نصفها. رفعتُ رأسي فوجدتُ نظراتهم عليّ. لم يكن في عيونهم عتاب... بل دهشة.

رانيل كانت أوّل من تكلّم، نبرتها هادئة لكن مشبعة بالحيرة:

"كيف وصلتِ إلينا، أريانا؟ كيف... دخلتِ السجن؟"

نظرتُ إليها ثم إلى نويس، الذي ما زال يُحدّق بي كأنني لغز لم يحاول حله بعد. أما كيران... فقد اكتفى بأن ظلّ صامتًا، لكنه لم يشيح بنظره عني منذ اللحظة التي فتحتُ فيها عيني.

عرفتُ أنهم ينتظرون منّي شرحًا، لكنّي أيضًا كنتُ أبحث عن أجوبةٍ منهم. فهم لا يعلمون ما مررتُ به، وأنا لا أعلم ما الذي حدث معهم.

قلتُ فقط: "هناك من أرشدني... وهناك أشياء كثيرة حدثت، كما حدث معكم على الأرجح."

نويس تمتم، وهو يفتح كفّيه وكأن بينهما لغزًا يحاول فهمه:

"كنّا متفرّقين... واجتمعنا هنا الآن."

هززتُ رأسي بخفّة: "الوقت حان لنفهم... ولنبدأ."

رفعتُ بصري نحوهم، وثبّتُّ نظري في عيونهم: "اسمعوني،" قلتُ، ونبرتي أكثر ثباتًا من داخلي المرتجف،

"ما سأقوله... قد لا يصدّقه عقل. لكنه حقيقي، وعليكم أن تعرفوه الآن."

رأيتُ كيران يعتدل في جلسته، ورانيل تقبض على طرف عباءتها بتوتر، أما نويس فقد مال قليلًا إلى الأمام، كمن لا يريد أن يفوّت نفسًا من الحكاية.

بدأتُ أحكي. عن الطاقة المسروقة. عن الكيان الذي نهض من العدم، وعن الحاكمة التي ظهرت حين ظننتُ أن لا مخرج. عن الأصوات التي أرشدتني، والآثار التي قادتني، والعتمة التي كدتُ أضيع فيها لولا ومضات الحقيقة.

قصصتُ كل شيء بدقّة، كما حدث حرفيًا، كما عشته أنا... بألمي، بضعفي، وخوفي، وأخيرًا بإيماني أنني لم أعد وحدي. وحين انتهيت، عمّ المكان صمتٌ لا يشبه كلّ ما قبله.

وفجأة، كأنّ الصمت انشقّ عن سيلٍ عارم، انهالت عليّ الأسئلة من الحُرّاس دون هوادة، كأنّ ما سمعوه قد زلزل يقينهم القديم.

قالت رانيل، بعينين تتّقدان:

"كنتُ على حق... نعم، كيان الكهف هو ذاته كيان العهد. الآن فقط ظهرت حقيقته، كاملة، لا لبس فيها."

أما نويس، فخطا نحوي وقد اعترى صوته رجفٌ خافت، بين الدهشة واليقين:

"إذًا... أنتِ هي؟ المنقذة؟ المنقذة التي انتظرناها طويلًا؟ النبوءات لم تخطئ إذًا... لقد صدقت كلّها!"

ثم سكن لحظة، كأنّه يُصغي لشيءٍ ما في داخله، قبل أن يتابع، مشدوهًا:

"والحاكمة... روحها ما زالت بيننا؟! إنها ترشدنا! تتواصل معنا من خلالك...من خلال القلادة! هذا... فوق كلّ تصوّر!"

كانت أعينهم جميعًا مسمّرة عليّ، تتوهّج كجمرٍ تحت رماد. لا أدري إن كان ذلك لأنّ الحقيقة قد انكشفت، أم لأنهم أمام منقذةٍ طال انتظارها، أم لأن الحاكمة، التي حسبها الجميع نسيًا منسيًا، ما زالت هنا... تراهم، وتهمس لهم، وتحيي فيهم ما ظنّوه مات.

تقدّم كيران بخطاه الرصينة، ونظراته لم تكن تحمل تلك الحدّة التي عهدتها فيه، بل شيئًا آخر... خليطٌ من الأمل والعتب والانتظار. قال بصوته العميق:

"أثناء غيابكِ... كنّا نحاول. وجدنا خيوطًا مبعثرة، إشاراتٍ متناثرة، وأسماءً لم نجرؤ على النطق بها. لكن شيئًا كان ناقصًا... شيءٌ ظلّ يحجب الحقيقة عن أعيننا."

ثم نظر إليّ نظرةً طويلة، وكأنه يبحث عن شيء في أعماقي، وتابع:

"الآن، بعد ما سمعناه منكِ... تلاشت الضبابية. اكتملت الصورة. عرفنا من خان، ومن بقي وفيًا. كلماتكِ كانت المفتاح."

سكت قليلًا، ثم ألقى سؤاله الذي حمل كلّ الثقل:

"هل قالت لكِ الحاكمة كيف ننقذ الأرض؟ هل أخبرتكِ بالخطة؟"

شعرتُ بهدوءٍ غريب يغمرني، وكأن صوتها لا يزال يهمس في أذني. فابتسمتُ بخفّة وأجبت:

"قالت إنّ الوقت لم يحن بعد للكشف عن كلّ شيء... وإنّ أول خطوة تبدأ من اجتماعنا. علينا أن نتّحد أولًا... ثم نُخطّط معًا، كجسدٍ واحد وروحٍ واحدة. حينها فقط، ستُفتح لنا بوابات الطاقة."

قال نويس وهو يُحدّق بي، كأنّ صدى ما سمعه لم يجد له مكانًا في إدراكه:

"بوابات الطاقة...؟ لم أسمع بها قط... لا في المخطوطات القديمة، ولا في أعظم كتب الحفَظة. أنا... لا أظن أنّ أحدًا في كاثرينا كلها سمع بها."

انعكست نار المشكّكين في عينيه، لكنها كانت ممزوجة بذُعرٍ خفي، لا يشبه الذعر المعتاد، بل أشبه برهبة من المجهول القادم.

حينها تنفّس كيران ببطء، وقال، وكأنّ شيئًا في صدره انفكّ لتوّه:

"ربما كانت فوق طاقة التدوين، أو دُفنت عمدًا، في زمنٍ لم يُرد للحقيقة أن تُعرف. لكنّ الوقت سيكشف، والحاكمة لن تتركنا نخطو في الظلام بلا بصيرة. حين نصل إلى تلك المرحلة... ستتكشّف أمامنا، واحدة تلو الأخرى."

ثم حدّق بي، وبصوتٍ أكثر جدّية أضاف:

"لكن قبل كل شيء... علينا أن نواجه الكيان."

ارتجّ الهواء الخفيف من وقع الكلمة. رانيل شبكت ذراعيها، وغمغمت:

"ذلك الكيان... لا يتبع قوانين الوجود."

أكمل كيران، وقد غلّف صوته شيءٌ من الصلابة:

"هو ليس بشريًا... لا يمكن تتبّعه، لا ظلّ له، لا أثر. يظهر في أي مكان... ويختفي قبل أن تلتقطه العيون. إنه... كمن خُلق من الفجوات، من الشروخ التي لا نراها."

ساد صمتٌ لحظة، شعرتُ فيها بأنّ الهواء نفسه يراقب، كأننا نبشنا سرًّا لا يجب أن يُقال.

ثم أكمل كيران، بنبرة حاسمة هذه المرة:

"ومع ذلك... علينا أن نحاول. هذا هو أول الطريق."

رفعتُ رأسي، ونظرتُ إليهم جميعًا. لم يكن في عيونهم خوف... بل وهجُ تحدٍّ يشبه البرق قبل أن يضرب الأرض.

وفي نهاية تلك الليلة، كنّا قد نسجنا خطتنا بإحكام... لا مكان للصدفة، ولا مهرب للظلال. وحين تنفّس الفجر على استحياء، كنّا قد انطلقنا... نحمل في صدورنا عزمَ من اختيروا، وفي أعيننا وهجَ من يعرفون أنّ لا رجوع بعد الخطوة الأولى.

***

لم يكن الفجر قد استيقظ بعد حين وصلنا إلى مدينة ميرابيليس. كانت الشجرة المقدسة تنتصب في صمت مهيب وسط الساحة، تتلألأ أوراقها بنور خافت، كأنها تُحاور أرواحًا لا نسمعها. بدا أن الهواء نفسه يعرف ما نحن على وشك فعله، فصار أثقل... أبطأ...مشحونًا برجفة لا تفسير لها.

وقفتُ مع الحُرّاس الثلاثة عند حافة السهل، حيث تتربّع شجرة النور... تلك الشجرة التي لم يطأها الخراب بعد، وظلّ ضوؤها نابضًا رغم كل ما جرى. ربما لأن الكيان أحبّها يومًا.

وهنا بدأنا تنفيذ خطتنا: استدراجه.

رانيل، بثوبها القرمزي، انحنت على الأرض ورسمت بعصًا من عظام سبع علامات متداخلة، بلغة قديمة عثرنا على طلاسمها في صفحات ممزقة من مخطوط محرّم. كانوا يسمّونها "عقدة الظلال"، طقسًا يُستخدم لحصر الكيانات المبعثرة بين العوالم، بشرط أن تُربط بمكان ضعفها.

تمتم كيران وهو يضغط بكفّه على جذع الشجرة، كأنّه يتحسّس نبضها:

"بصمته ما تزال عالقة هنا. إنه يعود لأنه يشعر بالأمان... لأنه ينسى من هو حين يكون تحت ظلّها."

لم يكن لدينا سوى لحظة واحدة. فحين يظهر، لا يمنحنا سوى بضع أنفاس قبل أن يتبخّر كسراب، وتضيع الفرصة مجددًا.

اتخذ كلُ حارس موقعه حول الدائرة: كيران في الشرق، رانيل في الغرب، ونويس أمامي تمامًا، حاملًا بلّورة طيفية استخرجناها من أنقاض معبد قديم. لم تكن حجارة عادية... بل كانت قادرة على "تثبيت الأثر"، أن تُجمّد الطيف في لحظة عبوره بين العوالم.

رفعتُ القلادة إلى صدري، وناديت: "أيتها الحاكمة... دلّينا."

شعرتُ بالرعشة تسري من عنقي حتى أطراف أصابعي، ثم بدا الهواء من حولنا وكأنّه يلتفّ، ينكمش، يئنّ.

ثم... ظهر الكيان.

تحرّك نويس أولًا، رفع البلّورة نحو السماء، فانبثق منها شعاع يمكنه أن يقطع الليل إلى نصفين. رانيل ردّدت الطلسمات، وصدى صوتها ارتجّ في الهواء، كأن الأرض نفسها تكرّر كلماتها. أما كيران، فغرس خنجره في قلب الدائرة وهو يصرخ:

"اقترن الأثر بالمكان!"

انتفض الكيان وصرخ، لا بصوت، بل برجفة هائلة جعلت الأشجار تنحني. حاول الانسحاب، التلاشي... لكن شيئًا ما أوقفه. لم تعد قدرته على الاختفاء تعمل. لقد أمسكنا به.

كنتُ أراقب، أرتجف، لكنني لم أتراجع.

وحين خفت الوميض وسكن الهواء، نظرتُ إلى مركز الدائرة... كان هناك. سجينًا داخل الحقل الطيفي، ساكنًا كتمثال دخاني، يضطرب ضوؤه كلّما نادت عليه الريح.

سكنت الريح أخيرًا. كأن الغابة بأكملها قد حبست أنفاسها معنا. وقفنا حول الدائرة، نحدّق في ذلك الكيان المحبوس في قلب الضوء، بينما بقاياه ترتعش داخل شرنقةٍ لامرئية، عالقة بين الوجود والعدم.

رانيل كانت أول من تكلّم، بصوت شبه مبحوح:

"لقد... نجحنا."

أومأ كيران ببطء، حذرًا، وكأنّ الصوت العالي قد يوقظ الخطر من جديد. أما نويس، فتنفّس بعمق، ثم قال وهو يمسح جبينه:

"نجحنا في حبسه... لكن المعركة الحقيقية تبدأ الآن."

نظرتُ إلى الكيان، وسمعت في داخلي صوت الحاكمة يهمس:

"لقد آن أوان استعادة ما سُرق... لتعود الأرض تتنفّس."

مددتُ يدي نحو قلادتي. كان النور المتدلّي منها قد بدأ يتوهّج بين الأزرق والسماوي. لم تكن قلادة بعد الآن... بل وعاءً مقدّسًا للطاقة.

خطوتُ داخل الدائرة ببطء. الجاذبية حول الكيان كانت كثيفة، مرهقة، كأن الهواء تحوّل إلى زجاج سائل. ركّزتُ نظري في عينيه غير المرئيتين، ورفعت القلادة أمامي:

"أيها الكيان... ما أُخذ عنوة، يُنتزع الآن بالحق."

بدأت طاقة غير مرئية تنبعث منه. دوّامات من ضوء قاتم خرجت من قلبه الطيفي، تتلوى في الهواء كالأفاعي، وتُمتص داخل القلادة التي بدأت تهتزّ في يدي، وكأنها تصرخ من الألم.

"الأولى من أوفاليس..." همس كيران.

وامتدّ شعاعها في السماء، بلون زمردي داكن، كأن الشجرة نفسها استعادت شهقتها الأولى.

"والثانية من دومالیس..." قالت رانيل بصوت يشبه البكاء.

وكان لونها أرجوانيًا، مهيبًا، كمن يذرف روحًا حبيسة.

شعرت بحرارة في صدري، وكأن القلادة كانت تكبر داخلي لا على رقبتي. اهتزّت الأرض قليلًا تحت أقدامنا، كأنها تستفيق من سبات طال أكثر مما ينبغي.

وحين انتهى كل شيء، سكن الكيان فجأة. لم يعد يقاوم. بدا وكأن شيئًا من قوّته تمزّق... ليس كليًا، لكنه كافٍ ليخلّف داخله فراغًا يشبه الندم.

رفعتُ عيني إلى الحراس، وهم بدورهم كانوا يحدّقون في القلادة التي باتت تنبض بنور لم تعرفه من قبل.

تمتم نويس، وكأنّه يخاطب الأزمان القديمة:

"جزء من التوازن قد عاد... والرحلة لم تنتهِ بعد."

حين استعدنا الطاقة المسلوبة، وشعّ وهجها في قلادتي كوميض قديم يستيقظ، ساد تساؤل. نظراتنا كانت تبحث عن إجابة واحدة: هل يمكننا إعادتها مباشرة إلى الأشجار؟ هل نستطيع أن نعيد ما سُلب، وكأن شيئًا لم يكن؟

لكن صوت الحاكمة، الذي لا يسمعه سواي، همس بيقين مرعب:

"تلك الطاقة لم تعد كما كانت."

رفعتُ رأسي نحوهم، وكأنني أنقل لهم نبأً جاء من عمق الزمان، وقلت:

"الحاكمة أخبرتني... أن الطاقة التي استعدناها ليست نقية، لقد شوّهها الكيان. لقد خالطها ظلامه، سكنها شرّه لسنين طويلة، فلم تعد كما كانت."

رأيت الصدمة على وجه نويس، والقلق في عيني كيران، لكنني تابعت، بصوت فيه رهبة:

"إعادتها للأشجار الآن لن تُنقذها، بل قد تُفسدها أكثر. يجب أولًا أن نُعيد إحياء هذه الطاقة... أن نُطهّرها، نُجدّدها، نُوقظ ما كان نقيًا فيها."

سألني نويس:

"وكيف نفعل ذلك؟"

أجبته، كأنني أكشف ستارًا عن باب نُسي منذ قرون:

"كما أخبرتنا الحاكمة... بفتح بوابات الطاقة المنسية."

عمّ السكون من جديد، لكن هذه المرة، كان الثقل في الهواء، كأن الأرواح تنصت.

تابعت، وهم يحدّقون بي بدهشة:

"بوابات أُغلقت منذ عصور، لأنها كانت أعظم من أن تُحتمل. كانت تُوزّع الطاقة بين كل ما هو حي، تربط جذور الأشجار بقلوب البشر. لكنها أُغلقت، خوفًا من فيضها العاتي. والآن... لا خلاص لنا إلا بفتحها مجددًا."

كان صوت الحاكمة ينساب في داخلي، كأنفاس ريح قديمة:

"من خلالها وحدها تعود الحياة. من خلالها فقط يُبعث النور."

أنهيتُ حديثي وعيناي على القلادة المتوهّجة في صدري، وقلت لهم:

"علينا فتحها. نحن حاملو النور الأخير."

رأيت الخوف، والشك، والحماسة تُرسم على وجوهنا جميعًا... لكننا لم نتراجع.

قال نويس أخيرًا، ونبرته متوترة:

"إذن... متى نبدأ؟"

نظرتُ إليهم، وأنا أشعر برهبة الطريق المقبلة، وقلت:

"الآن. لقد حان الوقت."

لم يكن القرار سهلًا... جلسنا جميعًا حول النيران الأخيرة قبل الرحيل، والليل يزحف بثقله فوق أرواحنا، كما لو أنّ السماء نفسها تحبس أنفاسها.

نظر كيران إلى رانيل، ونويس نحوي، ولم يتفوّه أحد بكلمة... حتى بادرت الحاكمة في داخلي بالهمس في قلبي: "لكلٍّ طريق، ولكلّ باب مفتاحه."

رفع كيران عينيه نحوي، ونظرةٌ لم أفهمها آنذاك مرّت بيننا... ربما كانت وداعًا، وربما وعدًا.

"سنتفرّق"، قلتها وأنا أقاوم الارتجاف في صوتي. "فريقان... لكلٍّ منهما مدينتان، وسنلتقي جميعًا عند بوابة أوفاليس. هناك... حيث تتلاقى الطرق وتتقاطع الأرواح."

لم تقل رانيل شيئًا، لكن ابتسامتها الهادئة حملت كلّ المعاني التي عجزت الكلمات عن نُطقها.

أما نويس، كعادته، فبقي صامتًا... لكنني رأيت ومضة تردّد في عينيه حين التفت نحوي، كأنّه يودّ لو اعترف بشيء، لكنه أخفاه تحت الغيوم الساكنة في روحه.

لم نحتج إلى وعود كثيرة؛ كانت نظراتنا وحدها كافية لتمثّل عهدًا صامتًا. عرفنا أن الطريق طويل، وأن الفقد ممكن، وأنّ البوابات لن تُفتح بلا ثمن.

لكننا عرفنا أيضًا أن قلب كاثرينا، أوفاليس، سينتظرنا... تمامًا كما ننتظر لحظة اللقاء.

وقفتُ أخيرًا، وغرستُ نظري في ظلال الغد، ثم همست:

"لتسافر الرياح معنا... ولتردّنا البوابات سالمين."

(٧)

ميرابيليس... المدينة التي تُخفي تحت سكونها هياج قرون، وأسرارًا غائرة لا تكشفها الشمس، ولا تنطفئ في حضرة الليل. مدينة تتنفس من باطن الأرض، حيث تتشابك الهمسات القديمة مع صمت الحاضر، وحيث تموت الحقيقة مختنقة في أحضان النسيان.

كنت أعلم – كما يُولد العلم من حدسٍ متجذّر في القلب – أن بوابة الطاقة المنسية لا تسكن بين الساحات المترفة، حيث تتراقص نوافير المرمر على نغمات الطمأنينة المصطنعة، بل في مكان نُسي عمدًا، دُفن في غياهب الظل، خارج الخرائط، وراء تخوم لا يجرؤ أحد على الاقتراب منها، كأن الاقتراب منها انتهاك لميثاق قديم.

تلك التخوم ... كانت سجني. كنت هناك منذ زمن، حين نُفيت إلى أطراف الغابة المحرّمة، لا كعقوبة فحسب، بل كطمسٍ متعمَّدٍ لوجودي من سجلات المدينة. لم يُرِد أحد أن يتذكّرني، ولا حتى في اللعنات.

إلى جانبي كانت تسير رانيل، في صمت يُضاهي صمت الأحجار، وعيناها المغلقتان كأنما تُبصران ما لا تُبصره أعيننا نحن، الذين نعيش فوق الأرض. كانت ترى العالم

بروحها، لا ببصرها؛ تُنصت للرياح كما لو كانت قصائد، وتُحادث الأشجار كما تُحادث أمٌ ابنها الغائب.

كنا قد عبرنا التلال الحمراء، التي بدا سطحها وكأنه ينزف من قلب الأرض، وشارفنا على حافة المنحدر الحجري المؤدي إلى وادي السكون، حين توقفت رانيل فجأة، كما لو أن شيئًا غير مرئي قد استوقفها.

ركعت أرضًا، ومدّت كفها فوق التراب، برفق مَن يُصافح ذاكرة قديمة.

همست بنبرة حائرة، كأن صوتها يخرج من أعماق لا تنتمي لهذا العصر:

"كيران... ثمة أصوات تحت الأرض..."

ثم صمتت، كأن الكلام أكثر إيلامًا من السكوت.

كنت على وشك الرد، غير أن الأرض نفسها بادرتنا بالإجابة. اهتزت الصخور تحت أقدامنا، وارتسمت على التربة دائرة من الشقوق الحمراء، تتوهج كما لو كانت جرحًا ينزف وهجًا لا دمًا. ومن تلك الفجوة، خرج ضوء شاحب، كأن نفسًا قديمًا نفض عنه الغبار واستيقظ بعد سباتٍ ألفيّ.

تراجعت خطوة، مذهولًا. أما رانيل، فنهضت ببطء، عيناها المغلقتان ترتجفان كما لو أنها تشهد رؤيا من وراء حجاب الزمان. قالت بصوت بالكاد يُسمع:

"هذه أرواح النائمين... أرواح حرّاس المدينة القديمة. لقد حُبسوا هنا منذ ألف عام... ينتظرون أن يُسمع صوتهم."

خطت خطوة نحو الشق، فاهتزت الأرض مجددًا، وخرجت منها تموّجات من هياكل ضوئية، أطياف تحلّق في الهواء كأحلام مُتكسرة. لا ملامح لها، لكن وجوهها كانت مألوفة على نحوٍ موجع، كأنها أجزاء من ذاكرة دفنها النسيان عمدًا.

اقترب أحدها من رانيل، همس لها بما لم أسمعه، لكنني رأيت كيف ردّت عليه برقة:

"أعلم... وأنا هنا لأفتح الطريق. لكنكم لن تعيقونا، أليس كذلك؟"

ساد سكون غريب، ثم بدأت الأطياف تدور حولها، في حركة لولبية، كأنها تؤدي طقسًا لا يُمارس إلا حين تلتقي الروح بالزمن. رانيل مالت وسط الدوامة، تتمايل كما لو كانت ترقص رقصة غير مرئية، تنتمي لعالم لم يعد له مكان هنا.

وفجأة... توقفت. انحنت بجزعها إلى الأمام، أنين خافت خرج منها، كأن شيئًا اخترقها، لا جسديًا، بل في عمق روحها. أردت أن أندفع نحوها، لكن يدها ارتفعت بصمت، تطلب مني ألا أتدخل.

قالت بصوت خافت كمن يلفظ أسرار الأرواح:

"لقد سمعتهم... الآن يمكنهم أن يرحلوا."

وفي لحظة واحدة، تلاشت الأرواح، كأنها لم تكن، وعاد الشق إلى الانغلاق، تابت الأرض عن انكشافها، وعاد كل شيء كما كان... ظاهريًا.

تنهدت رانيل، وابتسمت بتعب، ثم قالت:

"لم يكونوا خطرًا... كانوا فقط ينتظرون أن يُنصَت إليهم."

تابعنا المسير في صمت، صمتٍ لا تقدر عليه الكلمات، كأن الكون ذاته احترم ما حدث. ثم وصلنا. أمامنا انكشفت بوابة طاقة ميرابيليس المنسية – فمٌ حجري ضخم، تعلوه نقوش متآكلة، محفورة بحروف لا تُقرأ، وكأن الزمان ذاته قرر أن يُخفي معناها.

اقتربتُ، ولامست الحجر البارد. بدأت النقوش تتوهّج ببطء، نورها كنبضات قلب يُبعث من جديد. لكن... فجأة توقفت.

وانبعث من داخل الحجر صوت غريب، صوتٌ عميق، كأن الجبل نفسه هو من يتحدث، لا يُسمَع بالأذن، بل بالقلب:

"لا يُفتح الباب إلا بتجديد النسيان... تَخلَّ عمّا رفضتَ يومًا أن تعترف به."

أغمضتُ عيني، وسقطتُ داخلي، كأنني أهبط في بئر من ذكرياتي.

رأيت نفسي هناك... في تلك الليلة، أقف في قاعة المجلس، أصرخ، ألعن، أكسر الأختام بيدي المجروحة، والدماء تنقّط على الأرض كشهد مسموم. كنت أظنني وحدي، مظلومًا.

لكني كذبت. كنت أبحث عمّن يسمعني، من يرى وحدتي، من يمدّ يده إليّ حين أغرق. لم أبحث عن انتقام، بل عن خلاص.

نُفيت بعدها، وقلت إنني فخور، وإنني اخترت هذا الطريق.

لكن الحقيقة... أنني بكيت تلك الليلة، وحدي، على أطراف الغابة. بكيت بصمتٍ حتى انطفأ صوتي، بكيت لأنني لم أكن مستعدًا للرحيل، ولأنني كنت أحتاج فقط أن يقول لي أحدهم:

"أنت لم تكن مخطئًا."

فتحت عيني، وضعت راحتي على النقش، وهمست بشهقة مكتومة:

"أعترف...أنني كنت خائفًا."

في تلك اللحظة، ارتجّت البوابة، واشتعلت النقوش من جديد، كأن الحقيقة قد بعثت الحياة في الحجر. رانيل وضعت يدها على كتفي، بلا كلمة، وابتسمت.

دارت الأحجار ببطء، وتشققت البوابة من الداخل، وظهر حجر بلّوري يدور في الهواء، وحوله الزمن ذاته بدا وكأنه ينحني بخشوع.

مددت يدي إليه، وقلت:

"أعدتُ لكم الألم... فخذوه، واتركوا لنا الضوء."

عانقتنا البوابة بانفجار من النور، ليس نورًا يُرى، بل يُحَس، كأن للغفران شكلًا وملمسًا. هكذا... انفتحت بوابة طاقة ميرابيليس، لا بفعل القوّة، بل بالاعتراف... بالصدق.

***

حين غادرنا ميرابليس، بدا الطريق إلى دومواليس وكأنه لا يرغب بنا أن نصل، كأن الأرض ذاتها تآمرت مع الزمن ليُثقل خطانا، خاصّةً وقد علمنا أن الجنود هناك يترصّدون بنا. لم تكن المسافة وحدها طويلة، بل الزمن نفسه بدا ممدودًا بين أنفاسنا، رطبًا بالقلق، مثقلاً بالانتظار، مفتوحًا على احتمالات لم نجرؤ على تسميتها.

رانيل كانت تسير إلى جواري، لا تسأل، لا تشتكي، خطواتها ثابتة كصلاةٍ قديمة.

أما أنا، فقد كنت أُصغي. الطبيعة كانت تتكلّم، وأنا أُصغي. الأشجار تحذّر، الصخور تهمس، والرياح تسألني عمّا أحمله في صدري.

عند أحد المنعطفات، بدأ الضباب يثقل رؤيتنا، وبدأت ظلال غربان سوداء تحوم فوق رؤوسنا. شعرت بندائها... كان همسها يمرّ في عروقي كالتيار. كانت الطبيعة ذاتها تختبرني، تناديني:

"هل أنت مستعد؟ هل ستسمعنا حين نعوي؟ هل ستفهمنا حين نصرخ؟"

تقدّمت، ورفعتُ يدي للريح، للأوراق، للحجارة التي بدت كأنها تتنفّس من حولنا. ناديتُها بلغتي القديمة، تلك التي لم أتعلمها من بشر، بل ورثتها من الأرض ذاتها.

فتشقّقت الأرض أمامنا، وظهر كائن من جذورٍ ولحاء، له عينان من ضوء، وقدمٌ من رماد. لم يكن عدوًا... بل سؤالًا. وكان جوابي صادقًا، واضحًا، لا تردّد فيه:

"أنا ابنكم. لا تعيقوني... بل أرشدوني."

فأفسح لنا الطريق، وعاد إلى ترابه، كما يعود السؤال إلى صمته. وهكذا... اقتربنا من بوابة دومالیس.

مدينة الصخور اللامعة، والليل الذي لا يُغمض جفنه. كأن كل زاوية فيها تُخفي سرًا، وكل حجرٍ يحرس جُرحًا لم يندمل.

مشينا بين أطلالها الباردة، حتى قادتنا الرموز المنقوشة على الجدران إلى البوابة التي كنّا نبحث عنها. كانت مختلفة عن بوابة ميرابليس. هذه كانت صامتة، ساكنة، كأنها تحبس أنفاسها منذ قرون.

رانيل التفتت إليّ، وقالت بنبرة لا تشبه أي صوت سمعته منها من قبل:

"ترى... ما الذي ستطلبه البوابة؟"

ثم مشت نحوها. كنت على وشك مناداتها... لكن شيئًا بداخلي، شيء أقدم من الفكر، قال: "لا."

وحين لمست رانيل البوابة... اهتزّ الهواء، ثم اختفت. ظننت أنني سأنتظرها كما ينتظر الشتاء عودة الفجر، لكن دومواليس لم تتركني في الجهل.

الأرض تحت قدميّ بدأت تنقل لي صورًا، موجات من مشاعر لم تكن لي.

رأيت الطفلة التي وُلدت دون نور. التي لم ترَ أمّها إلا باللمس. التي كانت تُسأل مرارًا: "هل تتمنّين أن تكوني مثل الآخرين؟"

سمعتُ الأصوات التي حاولت تحطيمها، ورأيت كيف بنت لنفسها عالمًا داخل رأسها، أكثر صدقًا من هذا العالم الكاذب.

لم أكن معها... لكنني وجدتها في أعماقي.

ووسط كل هذا، رأيت رانيل تقف وسط تلك العتمة... وتبتسم. لأول مرة، رأيتها تبكي.

خرجت من البوابة، وفي لحظة خروجها من دائرة الصمت، راقبتُها كما يُراقب الغريب شروق شمسٍ في أرضٍ لا تعرف الفجر.

خطت خطوة واحدة خارج البوابة... وسمعتُ صوتًا لم يكن صوتًا. كأن الأرض زفرت، وكأن المدينة ارتعشت من أعماقها.

ثم... حدث ما لا يُنسى.

اهتزّت الحجارة من حولنا، وبدأت الرموز القديمة المحفورة على الجدران تتوهّج بنورٍ ذهبيّ داكن، كأنها تتّقد من الداخل.

السماء فوق دومالیس تشقّقت كزجاجٍ قديم، واندفع من الشقوق نورٌ سائل... لا يشبه أي ضوءٍ عرفته. لا هو نار، ولا ماء... بل شيء بين الحياة والحقيقة.

البوابة تنفّست. نعم... تنفّست كما لو أنها كائنٌ نائم منذ ألف عام قد استفاق. الدوائر المحفورة من حولها بدأت تدور، أولًا ببطء... ثم تسارعت، كأن الزمن نفسه تحرّر. ورأيتُها... رأيت بوابة الطاقة، بكل مجدها، ترتفع من باطن الأرض.

لم تكن بابًا، بل نجمًا منحوتًا من الضوء، يفتح جناحيه في قلب مدينة نسيت أنها حيّة. رنّ صوتٌ عميق، كأن الجبال نفسها نطقت:

"الاختبار قد تم... والممر قد فُتح."

و... يا للعجب كل شيء تجمّد للحظة. كأن العالم كلّه وقف ينظر. الريح صمتت، الغبار سكن، وحتى نبضي خفَت... كأنه خشي أن يُفسد تلك اللحظة المقدّسة.

ثم، كما جاء، بدأ كل شيء يعود.

الضوء انسحب إلى قلب البوابة، وبقي أثرٌ منه معلّقًا في الهواء، كخيوط حلمٍ لا تريد أن تصحو.

تقدّمتُ خطوة، ولمستُ أحد رموز الطاقة المضيئة. كان دافئًا. نظرتُ إلى رانيل... وكانت تنظر إلى اللاشيء، تبتسم بوجهٍ غسلته الدموع لا لأجل الحزن... بل لأجل الضوء.

(٨)

لم أكن أعلم أن الطرق المؤدية إلى البوابات القديمة لا تمر فقط عبر الجبال والوديان... بل تمر أحيانًا عبر أرواحنا.

حين افترقنا عن كيران ورانيل، شعرت بشيء يعلق في قلبي، كأن خيطًا شفافًا امتدّ بيننا جميعًا، لا يُرى... لكنه لا يُقطع. كان عليّ أن أكون قوية، أن أستمر، أن أواصل الرحلة وكأن شيئًا لم يتغير، رغم أن كل شيء تغيّر.

كنت مع نويس. نعم، نويس...ذاك الذي لا يتكلم، لا يبتسم، ولا يرفع عينيه إلا حين تمر الغيوم أمام الشمس. لطالما شعرتُ أنه لا يثق بي... وربما كنت مخطئة.

لكن الآن، بدا مختلفًا. منذ اللحظة الأولى في طريقنا إلى سيرافينا، لاحظتُ ذلك التغيير. لم يكن يحدّثني، لكنه لم يعد يشيح بوجهه عني كما اعتاد. وحين توقفتُ لالتقاط أنفاسي، أشار لي بيده أن أتابع. وعندما كاد جسدي ينهار من التعب، تقدّم أمامي بخطوة... كأنما يقول: "أنا هنا."

سيرافينا... المدينة التي تتنفس الموسيقى وتخفي الأسرار في أغانيها. لم تكن مجرد حجارة... كانت نغمة. والبوابة، لم تكن بابًا، بل انتظارًا. انتظار لصدى قلبٍ يعرف الصمت جيدًا.

كان المكان هادئًا على نحوٍ غريب. هدوء لا يريحك، بل يوقظ فيك كل ما حاولت الهرب منه.

وصلنا إلى ساحةٍ وسطية، فيها سبعة أقواسٍ حجرية، وخلف كل قوس جدارٌ صلب لا يُفضي إلى شيء. لا طريق، لا باب، فقط جدار.

لكن نويس... كان يعلم. جلس القرفصاء وسط الساحة، وأغمض عينيه. لم ينبس بكلمة، لكن الريح بدأت تدور من حوله ببطء... كما لو أنها تصغي لهمسة قديمة نُسيت منذ قرون.

ثم، بدأت السماء تُظلم. لا ليلًا، بل كأنها تستعد للبكاء.

كنت سأتحرك، لكنه رفع يده دون أن يفتح عينيه، فثبّتني مكانِي. وفجأة، برقت السماء. ثلاث ومضات برق. ثم سقط المطر. قطرة... فقط واحدة، هبطت على كف نويس.

عندها، تكلّم: "هنا حزني... وهذا مفتاحها."

وبهدوء لا يُشبه الانفجارات، انفتحت البوابة. لا صوت، لا صرير، فقط انفتاح... كما لو أن الجدار ذاب من تلقاء نفسه.

ومع انفتاحها، انبعث نور ناعم يشبه ضوء القمر حين يمرّ عبر نافذة قديمة. الهواء تغيّر. لم يعد هواءً فقط، بل طاقة. شيء ما غير مرئي جعل الشعور بالوقت يختلف. بدا وكأن الساحة كلها تنبض... ببطء، كأن قلبًا خفيًا بدأ في الخفقان من جديد.

نظر إليّ، وقال بصوتٍ عميق لم أسمعه منه من قبل: "بوابتي لا تُفتح بكلمة ... بل بدمعة"، ودخل.

لم أتبعه. لم يكن مسموحًا لي. كانت البوابة مفتوحة له وحده... وكأنها تعرفه.

وقفت على العتبة، أراقب ظهره وهو يختفي شيئًا فشيئًا في ضوء خافت، لونه يشبه المطر حين يُغسل بالحزن.

بوابة سيرافينا لم تكن ممرًا... كانت مرآة. لا أعلم ما الذي رآه نويس بالداخل... لكنني شعرت به.

كان الصمت من حولي لا يُحتمل. شعرت أن كل لحظة تمضي كانت تُقشّر شيئًا من روحه. الطيور اختفت من السماء، والريح توقّفت، وكأن العالم قرر أن يُنصت لما يجري خلف ذلك الجدار.

ثم... سمعته يصرخ. صرخة لم تكن عالية... لكنها صادقة.

تقدّمت خطوة دون أن أعي، وضعت كفي على البوابة... فرأيت.

كان واقفًا في ساحةٍ خالية، المطر ينهمر عليه وحده، وكل من أحبّهم وقفوا على الأطراف: لا يقتربون، لا يتحدثون، فقط ينظرون إليه بعيونٍ خالية.

ثم ظهرت أمه... تلك التي كان يردد اسمها حين غفى ليلة هروبهم من سجن دومواليس، قال وهو نائم: "أمي... لم أكن أقصد أن أرحل."

اقتربت منه... ثم أشاحت بنظرها عنه واختفت.

تراجع خطوة... ثم جلس. طفل وحيد... وسط ساحة تمطر عليه فقط. لكنه لم يستسلم. رفع رأسه نحو السماء، مد يده كأنه يبحث عن شيء مفقود، وهمس: "أعدك... حين تبتسم لي السماء... سأعود."

وعندها... توقّف المطر.

خرج نويس من البوابة والنور يشع منها، لم يكن باكيًا، ولم يكن منتصرًا...كان هامدًا، كمن دفن شيئًا من نفسه للتو.

تلك البوابة لم تُفتح بالقوة، بل بالصمت.

***

غادرنا سيرافينا بصمت يشبه صمت الغروب، ذلك النوع من الصمت الذي لا يعني النهاية... بل بداية لا تشبه ما قبلها.

لينفارا لم تكن مدينة، بل أنفاسًا من حلمٍ صعدت واستقرّت في السماء. كأنها رفضت الانتماء إلى الأرض، وقرّرت أن تحيا حيث تتنفّس الغيوم وتتكلم الرياح. تتربّع هناك، في الأعالي، فوق كل المدن، كأنها لم تُبنَ بل اختيرت... كأنّ السماء نفسها مدّت يدها ورفعتها.

طرقاتها ضبابية بلون اللؤلؤ، والهواء فيها ليس هواءً، بل ذاكرة؛ كل شيء فيها يهمس، كل حجرٍ يحمل قصة، وكل نسمة تعرف من أنت.

في أقصى الحافة الشرقية، حيث لا تجرؤ الخطوات على المضيّ بلا رهبة، كانت البوابة تنتظر. أو تنام أو تحلم.

لم ألاحظها أولًا. بدت في البداية كوميضٍ في الهواء... ثم أخذت تتشكّل أمامنا كما يتكوّن الحلم في العقل. خطوطها لم تكن مستقرة، تتلوّى كدخانٍ ملوّن في ماء راكد. هيكلها ينبض ككائن حي، كأنها قلب بلا جسد. في مركزها، دائرة من ضوءٍ سائل، تتغيّر ألوانها كلّما رمشت.

اقتربتُ منها دون أن أشعر، وكأن شيئًا ما كان يجذبني.

ثم سمعته...لم يكن صوتًا بشريًا، ولم يأتِ من الخارج، بل كان فيَّ. صوتٌ قديم، لا هو ذكرٌ ولا أنثى، لا هو حنونٌ ولا قاسٍ؛ فقط... صادقٌ حدّ الألم:

"قدّمي شيئًا منكِ... شيئًا تجهلينه. وافتحي السبيل."

تجمّد الزمن...لم أتحرّك.

التفتُّ نحو نويس، فرأيته يرمقني بنظرة ممتلئة بالدهشة، كأنه يحاول أن يُصدّق أنه سمع ما سمعته.

قال بصوتٍ منخفض، يشوبه الذهول:

"أحقًا... ستفعلين ذلك؟ دون أن تعرفي ما هو الشيء؟"

نظرت إليه، ثم عدتُ ببصري إلى البوابة، إلى ذلك الكيان العتيق الذي لا يطلب بل يقرّر. شعرت أن الخيار لم يكن لي. لكنني كنت مستعدة.

"نعم، سأفعل."

"هذا هو الطريق، نويس... لا تُفتح بوابات كهذه إلا إن قدّمت لها ما لا تعرف أنه لك."

ثم همست، أو ربما فكّرت، أو تمنّيت فقط: "أنا أقبل."

ارتجف الهواء من حولي، كأن لينفارا نفسها شهقت.

شعرتُ بنفسي أُقشَّر من الداخل بلطف مروّع... وكأن شيئًا يُنتزع من عمقي، شيء لم أكن أعرف بوجوده، لكنه كان فيّ.

لم يكن ألمًا، بل غيابًا مفاجئًا... لحظة من الصمت، ليست في الأذن، بل في الروح.

ثم... انفتح الضوء... لا كأبواب تُفتح، بل ككائنٍ ينهض من نومٍ عميق. انشقّت طيات الطاقة أمامي، وتدفّق منها نور ليس ضوءًا فقط، بل إحساس... حرارة ناعمة، نبض حيّ، صوت يشبه صوت القلب حين ينبض بشدّة في صدرك.

تسلّل الضوء إلى الأرض، إلى الهواء، إلى عيني، إلى دمي وشعرت به.

(٩)

لم يكن الوصول إلى بوابة أوفاليس يشبه أيّ وصولٍ سابق. لم نكن أربعة أشخاص فقط نمشي نحو الضوء، بل كنّا ظلالًا حاملةً لما تبقّى من قصص هذه الأرض. خطونا ونحن نحمل على أكتافنا كلّ الصمت، كلّ الشك، كلّ الذنوب الصغيرة التي علقت بنا منذ البداية.

كيران كان يسبقنا بخطوةٍ واحدة، دائمًا. رانيل بدت متوترةً كوتر كمانٍ قديم، وكنت أنا... أراقب نويس، ذاك الصامت الذي صار يبتسم للريح. لم يعد يحمل الحِدّة في عينيه، بل صفاءً أشبهَ بنهاية صلاة.

وها هي، بوابة أوفاليس. مرتفعةٌ كحلم، دائريةٌ تمامًا، تنبض في الهواء، تتغيّر ألوانها كما لو كانت تقرأ أفكارنا. لم تكن منحوتةً في شيء، بل كانت عالقةً بين لا أرضٍ ولا سماء، وكأنها صدعٌ في الواقع نفسه. خافتةٌ في وهجها، لكنها عميقة، كأنها تعرفنا أكثر مما نعرف أنفسنا.

اقتربنا منها، وحاول كيران مدّ يده كأنه يهمس لها بشيءٍ قديم، شيء من دمه أو من ماضٍ لم يعد يتذكّره. لكنها بقيت ساكنة.

رانيل همست بترانيم بلغة الأسلاف، أصواتٍ لم أسمعها من قبل، كأنها تستدعي الأرواح التي عاشت أولى الطقوس. ولم يحدث شيء.

نويس وضع يده على قلبه، وسار نحوها بخطى هادئة. كان وجهه كمرآةٍ مائية، ناعمًا، ساكنًا، لكنه حين لمس الضوء، انكمش كأنّ شيئًا ما بداخله كُسر. تراجع.

حينها نطقت، رغم أنني لم أكن أرغب بالكلام:

"إن لم تُفتح هذه البوابة لأحدنا... فلِمَن تُفتح إذًا؟"

كنت أعرف الإجابة: "الحاكمة."

البوابات الأربع... كلّ واحدةٍ قد فُتحت لواحدٍ منّا. وبقي قلبٌ واحدٌ لم يُختبر بعد. قمتُ بخفة، وسحبتُ القلادة من تحت ثوبي. لم تكن تبثّ حرارة، لكنها نبضت فجأة، كما لو أن البوابة استشعرت وجودها.

اقتربت... وحين لامستُ الضوء بها، لم يحدث شيء عادي.

الضوء انفجر، لا ليضيء، بل ليمحو كلّ ما حولنا لوهلة. كأننا انفصلنا عن كاثرينا.

ثم ظهرت الحاكمة، لكنها لم تكن كما نعرفها – لا تاج، لا ثوب ملكي. كانت مجردةً من كلّ السلطة، واقفةً في الضوء كما يُولد المرء، فقط بعينين من زمنٍ بعيد.

ثم جاء صوتٌ لم يكن صوتًا، بل قرارًا محفورًا في الهواء:

"الاختبار هو الاعتراف."

تراجع كيران خطوة. رانيل شهقت. نويس جفّ وجهه. أما الحاكمة، فابتسمت ابتسامةَ مَن يعرف أن هذا اليوم سيأتي.

تقدّمتْ خطوة نحو البوابة، وقالت:

"كاثرينا ليست ما تظنون. لم تكن يومًا عالمًا مستقلًّا. كانت... نصف أرض."

همست الرياح. ظننتُها تنقل الخبر إلى الجبال.

"قبل آلاف السنين، كانت الأرض واحدة، عظيمة، مليئة بالطاقة والسكينة. لكن الخيانة تسلّلت إلى القلوب. اثنان حَكماها معًا، لكن أحدهما خان، أو ظُنّ أنه خان... لا أعرف. اشتعلت نارٌ لم تُطفأ إلا بالدماء."

نظرت إلينا، وفي عينيها لمعةُ دموعٍ لم تنزل.

"فُصلت الأرض بطقوسٍ ممنوعة، ضُربت فيها الطاقة، وخرج منها كلّ توازن. اخترتُ العزلة. اخترتُ أن أُسمّي هذا الجزء كاثرينا، وأقسم أن أحميه... حتى لو لم أرَ الحقيقة."

رانيل همست:

"والنصف الآخر؟"

ردّت بصوت بالكاد يُسمع:

"مجهول، منقطع، لا طيف له هنا، ولا طاقة. لعله فني، لعله ينتظر... لا أعلم."

ارتجّت البوابة، واهتزّت أرض أوفاليس تحت أقدامنا. بدأ الضوء ينساب من الشقوق في الهواء، كما لو أن العالم يُنادي من جديد.

وفجأة... انفجرت البوابة بالنور، كأن شمسًا جديدةً وُلدت فينا.

ركض كيران، وصرخ نويس – نعم، صرخ أخيرًا – بينما رانيل بكت وابتسمت في آنٍ واحد. أما أنا، فشعرتُ أن الهواء صار أكثر نقاءً، وأنّنا، رغم كلّ ما فقدناه... قد استعدنا شيئًا أهمّ... إيماننا.

***

كنا خمسة... لا، أربعة. لأن الحاكمة، حتى وإن كانت محبوسةً في قلادتها، لم تكن يومًا غائبة. كانت دائمًا بيننا، تهمس للريح، وتحرس خطواتنا من خلف حجاب الضوء.

الريح هنا لا تهبّ، بل تنبض. كأن الأرض نفسها تتنفّس من أعماقها، حول شجرة أوفاليس التي لم تكن مجرّد شجرة، بل كيانًا حيًّا، أقدم من الزمان، وأقرب إلى الروح من النبض.

لم أرَ شيئًا مثلها في حياتي، ولن أراه أبدًا.

شجرةٌ عملاقة، جذعها بسمك أسطورة، لم تكن لها أوراق، بل كانت تتفرّع منها خيوطٌ من النور، تشعّ كصلواتٍ صامتة. ألوانها تتبدّل بلا انقطاع: الأبيض الهادئ، الأزرق السماوي، والبنفسجي العميق، تصعد جميعها إلى السماء كما لو كانت تعيد تشكيلها.

هناك، في قلب كاثرينا، وقفت شجرة أوفاليس، شامخةً في مركز النبض... لكننا لم نكن وحدنا.

كان المشهد أشبه بالأساطير، بجلالِ الخوف قبل لحظة الخلق.

حشودٌ من الجنود، وسكّانٌ من أطراف كاثرينا، أحاطوا بالشجرة في دوائر مشوّشة، لا انتظام فيها، ولا ثقة. عيونهم مشدودةٌ كأنهم يرون ما لا يُفهم، وكأن قلوبهم تسمع شيئًا لا يُقال.

صرخ قائدهم، مشيرًا بسيفه نحو كيران:

"توقّفوا! لقد عبثتم بالنظام! البوابات كلها فُتحت دون علم المجلس، والقلب في خطر!"

لكن رانيل تقدّمت، بثبات مَن خرج من الزمن ذاته. عيناها لم تَرَهم كأشخاص، بل كظلالٍ رماديةٍ في طريق النور.

قالت، بنبرةٍ لم نسمعها منها من قبل – نبرةِ مَن كانت يومًا صوت الريح:

"أنتم لا تفهمون. القلب لا يُسرق... بل يعود. النور الذي تجهلونه هو ما جعل الأرض تنبض أول مرة."

"كفى!" صاح آخر، متوجّهًا إليّ.

تقدّمتُ خطوةً نحوه، لم أتحدث – فالكلام في مثل هذا الوقت لا يفيد. كلّ ما فعلتُه هو أنني رفعتُ يدي، وظهرت العلامات الخمس على جلدي – رموز البوابات الخمس التي فتحناها.

عندها فقط... عمّ الصمت. شعروا به، كما نشعر بالزلازل قبل أن تهتز الأرض.

"افتحوا لنا الطريق،" قال نويس، صوته ثابتٌ كجبلٍ نحتته القرون.

"فموعدنا مع النور."

فتراجعوا. وتقدّمنا نحن إلى قاعدة الشجرة.

كان هناك حوضٌ دائري محفورٌ في الصخر، كأنّ الطبيعة نفسها سجدت ذات يوم وشكّلته. من تحت هذا الحوض، كانت الجذور القديمة تنبض بالطاقة الأولى ... طاقة الخلق.

وضع كلّ حارسٍ يده على الرمز الخاص ببوابته، حول الحوض الذي انقسمت جوانبه إلى أخاديد رمزية. بدأت الألوان تتدفّق من أيديهم – نار، ماء، هواء –كلّ عنصرٍ يشعّ بهويّته، دون أن يختلط بالآخر، وكأنها رقصة كونية تنسجم دون أن تتنازل.

أما أنا، فوضعتُ يدي على رمز التراب، بعد أن نزعتُ قلادتي ووضعتها في الرمز الخامس، الخاص بآخر بوابة: رمز النور.

بعد أن ومضت جميع الرموز، اقتربتُ من مركز الحوض، ورفعتُ القلادة بكلتا يديّ، كما لو أنني أقدّم قلبي قربانًا للأرض.

وفجأة، تغيّر كل شيء. الهواء الذي لم يكن يتحرك، صار يلفّنا كدوامةٍ خفيفة. الضوء تموّج. الزمن انحسر كالماء حين يتنفّس القمر.

القلادة ثقلت بين يديّ، كأنها ابتلعت ألف عامٍ من الندم. وحينها، سمعنا صوت الحاكمة.

لم يكن صوتًا عاديًّا. لم يخرج من فمها، بل من قلب النور ذاته.

"أيتها الأرض التي جرحتني واحتملتني... أُعيد إليك طاقتي."

ارتفعت القلادة وحدها في الهواء، كما لو أنّ شيئًا خفيًّا يحملها، وما إن لامست شعاع النور المتدلّي من الشجرة، حتى... انفجرت.

لكن الانفجار لم يكن دمارًا... بل ولادة.

تدفقت الطاقة من مركز الحوض، لا كضوءٍ فقط، بل كذكرى أولى. امتلأ الحوض، ثم انشطر إلى خمس مجارٍ من النور، كأنها شرايين شفّافة، تنساب منها الطاقة الأولى نحو الشرق والغرب، نحو كلّ شجرة نورٍ في كاثرينا.

هكذا عاد التوازن. لم تعد أوفاليس وحدها، بل صارت أمًّا لكلّ شجرةٍ تشرب من نورها.

وفي وسط ذلك النور المتوهّج، تجلّت الحاكمة من جديد.

لم تكن طيفًا، ولا أسيرة نور... بل امرأةً من لحمٍ ونورٍ وذكرى، تشعّ بالسكينة، كأنّ الخلق بدأ بها للتو.

ركع الجميع، حتى الحشود التي ارتابت، فهمت. أدركت أن ما حدث لم يكن تمرّدًا... بل خلاصًا.

رفعت الحاكمة يدها، وصوتها كان أهدأ من النسيم، لكنه اخترق كلّ القلوب:

"لقد عاد نور كاثرينا الخالد..."

وارتفعت الهتافات، لا كصخب، بل كتسبيح.

(١٠)

أعرف أن بعض القصص تنتهي بصوتٍ عالٍ؛ بأبوابٍ تُغلق، أو أجراسٍ تُقرع. لكن قصتنا؟ قصتنا انتهت بهدوء أولى قطرات المطر بعد الجفاف.

مرت أيام قليلة منذ أن تفتّحت الطاقات واشتعلت الحياة من جديد في قلب كاثرينا. وفي كل يوم، كانت الأرض تشهق، كما لو أنها استيقظت من حلمٍ طويل.

الأشجار التي كانت مائلة ويابسة، أصبحت مستقيمة، مورقة، مزهرة حتى في غير أوانها. الأنهار التي كانت تجري ببطء، عادت ترقص بين الصخور، وسمكها اللامع يتلألأ كالشظايا المضيئة.

والأطفال... يا إلهي، الأطفال.

أصواتهم عادت. ضحكاتهم، بكاؤهم، جريهم خلف الطيور والفقاعات. عادت أصوات الحياة. عادت كاثرينا تنبض.

البيوت فتحت نوافذها، الأسواق نثرت توابلها، النسوة غزلن الأقمشة الملوّنة من جديد، والرجال رفعوا رؤوسهم إلى السماء دون خوف.

حتى الليل لم يعد كما كان... صار ليلاً خفيفًا، مزدانًا بنجومٍ دافئة، كأنّ الكون كله أرسل تحيّته للأرض المستفيقة.

ثم أُعلِن الاحتفال.

في ساحة أوفاليس، حيث بدأ كل شيء وانتهى، اجتمع الناس من كل أطراف كاثرينا.

زُيِّنت الساحة بأشعة النور التي لا يمكن صُنعها، بل فقط دعوتها لتكون. وبُنيت منصّة وسط الجذوع المتوهّجة، وامتزجت أصوات الموسيقى القديمة بأنفاس الأرض. كان هناك خشوع، لكنه ليس خوفًا... بل احترام.

الحاكمة... نعم، هي.

كانت أوّل من صعد على المنصّة. لم تكن على هيئة النور الخالص كما ظهرت لنا في الحوض، بل جسدًا ينبض. عيناها تحملان حكمة من غاب طويلًا، ووجهها كان يشبه الأرض نفسها قويًّا، عتيقًا، جميلاً.

خاطبت شعبها بصوتٍ رزين:

"أنا غبت كثيرًا... وربما ظنّ بعضكم أنني متّ.

لكن النبض لا يموت، بل ينتظر من يوقظه.

واليوم، لا أُكرّم نفسي... بل أكرّم من حمَوا الأرض حين نسيناها."

عندها، نادى المساعدون على الأسماء...

"الحارس كيران... الحارس رانيل... الحارس نويس..." صعدوا الواحد تلو الآخر، بثيابٍ لا تُشبه الجنود، بل تُشبه أبناء الأرض.

كُلُّ واحدٍ منهم وُضع على صدره وشاح النور المتوّج، وشهادة الخلود، التي لا تُمنح إلا لمن غيّر تاريخ كاثرينا.

ثم... جاء اسمي لم أتحرّك فورًا. تلفّتُّ حولي، ظننت أن هناك خطأ.

لكن الحاكمة ابتسمت وقالت:

"آريانا... يا من جئتِ غريبة، وخرجتِ من رحم الأرض كابنتها. ضحّيتِ بما لم نكن نعلم أنه ما زال فينا: النقاء. جعلناك مرآة للبوابات، ومنكِ اكتمل النبض. لولاكِ... لما كان هناك بعد اليوم من يحكي القصة."

صعدتُ السلالم بقدمين مرتجفتين.

شعرتُ أنني لا أحمل جسدي وحدي، بل كل اللحظات التي خفتُ فيها، بكيتُ فيها، تمنّيت أن أهرب فيها...لكنها الآن تحوّلت إلى مجدٍ هادئ في صدري.

وضعت الحاكمة يدها على كتفي، ثم ثبتت على جبيني وشمًا طاقيًا...علامة لا تزول، ترمز إلى "العبور".

وهتفت: "من هذه اللحظة ... تُعرَف آريانا بأنها 'حارسة العبور'، لا لأنها كانت حارسة، بل لأنها اختارت الطريق."

احتفل الجميع تلك الليلة حتى اهتزّت جذور أوفاليس من الرقص. تعانق الناس، وعزف الحكماء نغمة "النبض القديم"، وسُكبت مشروبات الزهور، واشتعلت نيران لا تحرق، بل تُضيء.

أما أنا... فجلستُ على حافة الساحة، أنظر إلى الأطفال وهم يلعبون، وأقول في قلبي:

"ربما كنتُ غريبة... لكن هذه الأرض الآن تعرف اسمي والأهم... أنني عرفتها."

***

أخبرتكم عن النبض، عن النور، عن الاحتفال... لكن ما لم أخبركم به هو أن لكل بداية، نهاية.

لم أكن أعرف، يوم وطئت أرض كاثرينا، كيف بدأت حكايتي هنا ... ولا لماذا كنتُ أنا من اختير، من سُحبت خطواته إلى بوابة أوفاليس، دون أن يفهم كيف أو متى.

لكنني الآن أعرف نهايتي وأعرف أن هذه النهاية ليست هزيمة... بل وداع يليق بالرحلة.

كنت أعلم أنني مختلفة... وإن كانوا قد اعتبروني واحدةً منهم، وإن احتضنوني، وإن وشّموا جبيني بعلامة الخلود، إلا أن نسيجي كان دائمًا غريبًا عن هذه الأرض.

فهم أبناء النور... وأنا؟ أنا من عالمٍ آخر، لا يعرف النور كطاقةٍ حيّة.

جسدي لم يُخلق ليحتمل هذا الضياء الخالص، وقد صمد فقط لأن روح الحاكمة كانت تسكن قلادتي، تحميني دون أن أدري.

لكنها الآن غادرت. تحرّرت روحها، وعادت إلى الأرض التي أنجبتها ... أما أنا، فلم يعد لي ما يحميني هنا.

البقاء كان سيُحرقني ببطء، ولن أكون إلا شبحًا لذكرى جميلة.

أصعب ما في الوداع ليس المغادرة نفسها، بل أن تترك قلبك معلّقًا على أغصان لا تستطيع أن تأخذه معك.

سأفتقد كل شيء... رائحة أوراق شجرة أوفاليس حين تهمس للريح. ضحكات الأطفال الذين نادوني بـ"حارسة العبور".

الساحة التي شهدت أعظم تحوّل في تاريخ كاثرينا.

سأشتاق للحاكمة... التي لم ترَ فيّ غريبة، بل مفتاحًا. التي وثقت بي، وأسندت مصير أرضها لقلبي المُذَبذب. علّمتني معنى أن تكون القوّة هادئة، وأن تكون العظمة في التواضع.

سأشتاق لأصدقائي... لرفاق الحرب والركض والبوابات الخمس. لأولئك الذين تقاسموا معي الخوف، ودفنوا معي التعب، وسهروا معي وهم لا يعلمون إن كنا سنعيش الغد.

لكن... سأشتاق له أكثر من كل شيء.

كيران...

لم يقل شيئًا يومًا، لم يعِدني بشيء، لم يقترب، لم يبتسم كثيرًا... لكنه كان هناك، دومًا. بنظراته التي أربكتني، بصمته الذي فهمني، بقسوته التي حمتني، وبلحظاته النادرة حين انكسر أمامي ولم يقل شيئًا... فقط اكتفى بأن يبقى.

كيران...

الذي لم يعرف أن قلبي ارتبط به قبل أن أدرك ذلك أنا نفسي. كنت أظن أنه لا يرى، لكنه كان يراقب. أظن أنه لا يهتم، لكنه كان يحرسني. أظن أنه لا يشعر... لكنه كان أكثر من شعر.

أذكر حين همستُ له قبل أن أغادر:

"هل ستتذكّرني؟"

لم يُجب فقط رفع يده، وربط شيئًا صغيرًا على معصمي – شريطًا من وشاحه، جزءًا من نسيجه، لونه يشبه لون النهار الأول بعد المطر. وقال بصوته الرخيم:

"كاثرينا مدينة بالنبض... لكِ. وكلما عاد النور... سيتذكّرك الجميع."

ها أنا أعود الآن إلى عالمي، إلى أرضي، إلى من كنت قبل أن أعرف من أكون. لكني أعود بروحٍ أخرى. أحمل بين ضلوعي أرضًا كاملة، وحكاية نور، وقلوبًا أحبّتني دون أن تطلب شيئًا. ولعل هذا يكفي.

لعل هذا ما يجعل النهايات جميلة... أنها تختزن في طيّاتها كل ما كان يستحق البداية. لكنني...لم أرحل تمامًا. رغم أنني لم أكن منهم، ولم يولد جسدي من نور أرضهم، إلا أن كاثرينا قبلتني... ووهبتني شيئًا لا يُمنح بسهولة: ختم العبور.

لا يمنحني الخلود هنا... لكنه يسمح لي بالعودة، مرة واحدة كل عام – في اليوم الذي استعاد فيه النور مجده، يوم أصبحت فيه كاثرينا حكاية تُروى لا حزنًا، بل فخرًا.

في كل عام، حين تشتعل المشاعل البنفسجية في ساحة أوفاليس، حين تضحك الأشجار، وتدور الأغاني حول النبع الأول، أعود لا كغريبة، ولا كحارسة، بل كـ آريانا... من أنقذت النور، وغادرت، وفي قلبها كيران... وصوت الأرض.

(١١)

كنتِ واقفة هناك، في وسط الساحة، شعركِ يتحرك بنعومة مع النسيم، وعيناكِ – كما دومًا – تسرحان في الأفق، كأنهما تبحثان عن إجابة لا تملكها الكلمات.

كل شيء كان يلمع من حولك ... الأرض، الأشجار، الوجوه، وحتى النور نفسه بدا وكأنه اختار أن يترك بعضًا من وهجه في خطوتك.

لم أقترب...لم أنطق. كنت أعلم، من اللحظة التي بدأ فيها الضوء يلتف حولكِ، أنكِ سترحلين... ولم أملك الشجاعة لأقول لكِ الحقيقة قبل أن تذهبي.

لم أقل لكِ إنني كنت أراقبك، في كل لحظة كنتِ تبتسمين فيها بشجاعة لا تشبه هذا العالم، وأنا، خلف قناع الحارس، كنت أتشقق من الداخل.

أرغمتُ نفسي على التراجع، على الصمت، على الكتمان، أقنعتُ روحي أن حضوركِ مؤقت... لكن قلبي لم يصدقني يومًا.

هل تعلمين ما أغرب ما في الأمر؟

لم تكوني من أرضي، ولم تعرفي قوانيننا، لكنّكِ وحدكِ كنتِ الأكثر فهمًا للنور... كأنكِ من نُسجتِ منه.

أنتِ التي لم تنشئي معنا، صرتِ رمزًا لنا. أنتِ التي جئتِ غريبة...صرتِ بيتًا، لكل من عرفكِ.

كنتِ تقولين دائمًا إنكِ لا تملكين شيئًا، لكن الحقيقة... أنكِ كنتِ العطاء كلّه. وهذا ما جعل فراقكِ لا يُحتمل.

رحلتِ... وأخذتِ معكِ شيئًا لا أعرف كيف أستعيده. أخذتِ ذاك الجزء من قلبي الذي بدأ ينبض من جديد، لأنكِ مررتِ به.

آريانا...

في رحلتنا إلى البوابات، كنت أتعمد التباعد. كنت أخشى أن يزداد تعلقي بكِ، أن يضعف دفاعي... أن ينهار الجدار الذي بنيته طيلة سنوات.

لكنني فشلت... فشلت لأن كلما حاولتُ الابتعاد، كنتِ تقتربين أكثر... لا بخطواتكِ، بل بجوهرك. كنتِ تسكنين الصمت، تربّين الحنين فيه، تُحيين ما مات فينا.

وها أنتِ اليوم...غادرتِ، ولكن ليس كما اعتقد الجميع. ظنّوا أنكِ ستعودين، مرة كل عام...

وظننتِ أنتِ ذلك أيضًا.

لكنني رأيتُ، حين لمعت قلادتكِ للمرة الأخيرة، حين اجتمعت الطاقات الخمس عند شجرة النبض، أنكِ منحتِ أكثر مما تملكين. لقد وهبتِ شيئًا لا يُرى... لا يُمس.

ذكرياتكِ في هذه الأرض، منحتِنا النور... وفقدتِ ذكرياتكِ.

كل ما عشناه...كل ما شاركناه، كل اللمحات، كل الدموع، كل الرعشات، كل تلك النظرات التي هربت منا ثم عادت... مُحي من داخلكِ.

ستعودين إلى عالمكِ، وستعيشين، لكن دوننا. دون أن تعرفي حتى من نكون.

وأسوأ ما في الأمر... أنكِ لن تشتاقي.

لن تنامي على صوت ذكراي، لن تبتسمي عند مرور طيفي، لن تبكي حين تمرّ بكِ أغنية حملت اسم أرضنا...

أما أنا... سأحملكِ داخلي كمدينة ضائعة، أدور في أزقتها دون خريطة، أستمع لضحكتكِ تتردد في الفراغ، وأبكيكِ، دون أن أجرؤ على استدعاء اسمكِ علنًا.

لم أكن يومًا رجلاً يجيد التعبير، لكنني الآن، في هذا الصمت الأخير، أخبركِ بما لم أجرؤ على قوله:

أحببتكِ،

لا لأنكِ أنقذتِ الأرض...بل لأنكِ أنقذتِني أنا.

ولو عاد بي الزمن، لتركتكِ تعرفين...قبل أن يسرقكِ الضوء.

❁❁❁

تمت بحمد الله